الدكتور
صالح الأشتر
أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق



في شعر النكبة

بحث تخطيطي في أصداء
نكبة فلسطين في الشعر
العربي المعاصر

مطبعة جامعة دمشق
١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م

في شعر النكبة

الدكتور

صالح الأشتر

أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق



في شعر النكبة

بحث تخطيطي في أصداء نكبة فلسطين في الشعر العربي المعاصر

الطبعة الاولى

مطبعة جامعة دمشق

١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأسود الرابضة في (مخيم العرّوب) على الضفة الغربيـة من الأردن ..

إليها ، وقد استبد بها الحنين الى الوطن المغصوب ، وأرّقها انتظار أذان الفجر لتلبي صيحة الزحف المقدّس ..

إليها أهدي هذه الصفحات !



تمهيد

قبل ثلاثة أعوام ، كنت أطوف مع نفر من طلابي في جامعة دمشق بالضفّة الغربية من الأردن ، ودخلنا معسكراً للاجئين قريباً من مدينة الخليل ، فطالعتنا وجوه من البؤس تلخّص ملامحها المتمرّدة اليابسة قصة النكبة ، ولفظت الخيام السود من جوفها أشباحاً منهوكة أقبلت تغوص في الطين الى ساحة المعسكر ، وتجمّعت في صف متكسّر طويل ، لترد للزائرين التحية !.

أحسست بالغصة تحرق حاقي ، وبالدمعة تتحجّر في جفني ، وأنا أشهد هذا القطيع الآدمي الذاهل ، وأيقظني من شرودي صوت دافىء ثائر ، انفجر من قلب أحد اللاجئين ، ينشد شعراً ينبض بالحنين الى الأرض الشهيدة ، ويموج بالايمان والتصميم على الثأر والعودة ، ونظرت الى المشرَّدين فإذا الوجوه الصفر الشاحبة تلتقي عند الثأر على أمل أشاع في أديمها حمرة العزيمة ، واذا العيون الضائعة الظامئة الى الانتقام ، يجمعها ذلك الشعر ، فتلتقي معه عند هدف واحد، ويدوّي المعسكر بزئير الغاضبين :

— إننا لعائدون !

وغامت صورة المعسكر أمام عينيّ الدامعتين ، ورحت أقول في نفسي : هذا دور الأدب في معركتنا الكبرى ، فقد استطاع الشعر أن يفجّر من أعماق اليأس والموت والظلام شعلة الأمل والحياة ، وأن يعيد للأشباح الحائرة إيمانها بالنضال والنصر ، ومثل هذا الدور المجيد للشعر يستحق الرصد والدراسة ...

وعدت الى دمشق ، وفي عينيّ صورة حزينة لأولئكم الاخوة اللاجئين القابعين في (مخيم العرّوب) ، وفي أذنيَّ صدى راعش لذلك الصوت الدافىء الثائر ، وعكفت منذ ذلك اليوم على شعر النكبة ، أجمعه وأضمّ أشتاته ، من دواوين الشعراء المعاصرين ، ومن المجلات الأدبية والصحف ، حتى تجمّع لديّ منه قدر كاف ،

يصور أبرز ملامح النكبة ، ويشف – كما أقدّر – عن أهم خصائص الشعر فيها ، ولهذا أجزت لنفسي أن أنجز هذه الدراسة ، وفي يقيني أن هنالك شعراً نظمته النكبة ولم تصل اليه يدي ، وحسب هذه الدراسة إذاً أن تظل بحثاً تخطيطياً مختصراً ، يشقّ الطريق ، ويقيم الصوى ، ويحث خطا الباحثين على متابعة السير !

أما المنهج الذي ارتضيته لهذا البحث فقد أملته طبيعة النكبة نفسها ، ذلك أن النكبة الفلسطينية مرّت في دورين كبيرين ، وصدور قرار التقسيم هو الحدّ الفاصل بينهما ، ولهذا فإن الدراسة المقارنة لشعر كل دور ، وأثره في تصوير أبعاد النكبة الواقعية والوجدانية ، منهج سليم مُوات ، يُبرز لأعيننا الخط البياني لشعر النكبة وتطوّره ، ويضع أيدينا على أهم خصائصه ومميزاته ، ولا بد لنا قبل أن نأخذ في دراسة شعر كل دور من تقديم فرش تاريخي ، ينير لأعيننا ظلمة النكبة ، ويرينا كيف وقعت الكارثة ، وكيف تطوّرت مراحلها ، وماهي أخطاؤنا العظمى ونقاط ضعفنا ، فتحديد هذا الجانب التاريخي الواقعي ، يوجّه دراستنا لشعر النكبة : ويعيننا على تقويم الاتجاهات التي سار فيها شعراء النكبة .

سنعرض إذاً الحقائق التاريخية لكل دور قبل دراسة شعره ، وسننتهي بعد ذلك إلى فصل نكشف فيه خصائص شعر النكبة في دوريها . .

ورجاؤنا من بعدُ أن تثير هذه الدراسة لشعر النكبة عزيمة الباحثين

لدراسة الجانب الآخر من أدب النكبة ، أعني النثر بمختلف فنونه ، من مقالة وقصة ومسرحية ، فالنكبة أعنف تجربة عاشتها أمتنا العربيةفي تاريخهاالحديث،والأدب الذي انبثق عنها هو أشدّ جوانب أدبنا المعاصر ارتباطاً بالنفس العربية وتجاوباً معها ، وفي دراسة هذا الجانب ، ورصد تياراته وخصائصه ، تقويم للاتجاه الرئيسي الفعّال في الأدب العربي المعاصر كله .

دمشق صالح الأشتر

الفصل الأول

الدور الأول : النكبة قبل قرار التقسيم

لنكبة العرب العظمى في فلسطين جذور بعيدة، ترجع بنا إلى فجر التاريخ الحديث للأمة العربية ، منذ تمطى العملاق الغربي في نهم مسعورٍ ، وهو يرى الرجل العثماني المريض نائماً على تراث مُغرٍ، من جملته رقعة من الأرض مترامية الأطراف ، عامرة بخيرات تُسيل اللعاب ! وهذه الرقعة الغارقة في الظلام والجهل والنوم هي الوطن العربي الذي أغرى نابليون ، فأقبل من الغرب يحدوه الشوق إلى الفتح ، ومد يده فأمسك بمصر ومعظم فلسطين ، وتهيأ لالتهام بقية الوطن العربي، حين صحا « الرجل المريض » من غيبوبته ،واستطاع بتأييد من الانكليز أن يردّ النسر الفرنسي عن سماء المشرق !

ومرّ زمن .. وحفر اسماعيل القناة بسواعد المصريين ودمهم ودموعهم ، وظنوا أنها ستكون شرياناً يحمل إليهم دم الحياة ،ولكن استهتار الخديوي وحيلة الاستعمار جعلا منها ثعباناً ملتفاً على عنق الوطن العربي : فقد باع اسماعيل القناة سلعة رخيصة بأربعة ملايين جنيه ، وهو الذي أنفق في حفلة افتتاح القناة وحدها نصف هذا المبلغ ، ودفع المليونير اليهودي روتشيلد الملايين الأربعة إلى رئيس وزراء بريطانيا اليهودي دزرائيلي، فأصبح الانكليز يملكون القناة ،ويحفظون لروتشيلد هذه اليد (اليهودية) التي طوّق بها عنق بريطانيا ، والتي لا يريد من ورائها مناً ولا شكوراً ، غير تأييد بريطانيا الأدبي للصهيونيين بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

وأقبل القرن العشرون ، والأمة العربيه لا تزال في سباتها العميق، لم يستيقظ منها غير نفر قليل ، تلقوا تعليمهم في اوربا ، أو في الآستانة التي كانت يومذاك تصخب بالحركات القومية والاصلاحية، وقد هالهم تأخر قومهم ونومهم ، فصرخوا فيهم ، ولكن صرخاتهم ضاعت في نفوس ميتة ، فلم يردهم ذاك عن عزيمة النضال ، وظلوا يعقدون المؤتمرات ويدعون إلى الاصلاح ، وهؤلاء هم الشباب القوميون العرب الذين باركوا ثورة الشريف حسين على الحكم العثماني ، وأيدوها وقدّموا الضحايا من أنفسهم في سبيلها .

لم يكن تأييد الشباب القوميين العرب للثورة العربية هو كل

مايدعمها ، فمن وراء الشريف حسين كان نفوذ أهله وعشيرته، ووعود بريطانيا له بدعم استقلال العرب ، وذهبُ (لورانس) الذي كان ينثره بدون حساب ، ليرفع به « أعمدة الحكمة السبعة » !

وانتهت الحرب الكونية الأولى ، وأخفقت ثورة الحسين ، لأن آماله الكبيرة لم تحسب لغدر بريطانيا حساباً ، ولأن إيمان الشباب القومي بثورته لم يكن يتوهج في قلوب عامة العرب ، حتى ولا في قلوب خاصتهم ، وقد رأى كثير من العرب في ثورة الحسين خيانة للمسلمين ، فهبوا يحاربونها . ويدافعون عن الخلافة العثمانية،ويحذّرون من مطامع المستعمرين المتربصين ، ولقد هاجم الشريف حسيناً شاعر كبير آنذاك ، هو شوقي ، مهاجمة عنيفة ، ورجا الأتراك ألاّ يلغوا الخلافة ليتولاها رجل عاجز أوهى المسلمين بجراحه :

من قائل للمسلمين مقالة لم يُوحِها غيرَ النصيحة واحِ
لا تبذلوا بُرد النبي لعاجزٍ عُزُلٍ يدافع دونه بالراح
بالأمس أوهى المسلمين جراحةً واليومَ مدّ لهم يد الجرّاح

ومثل هذا القول من شوقي كان يمثّل في ذلك الحين عواطف مصر وكثير من أهل الشام والعراق والجزيرة ، ولهذا خاب الثائرون ، واقتسم المنتصرون في الحرب مناطق النفوذ في العالم العربي ، واحتل جيش الانكليز بقيادة (اللنبي) فلسطين ، وقدّم وزير خارجيتهم (بلفور) سنة١٩١٧ وعده المشئوم إلى اللورد اليهودي (روتشيلد): «إن

حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية » .

كان هذا الوعد خاتمة جهود مسعورة لم تنم لحظة منذ خلافة السلطان عبد الحميد ، فقد حاول الصهيونيون شراء السلطان بالملايين فما أفلحوا ،وعرض زعيمهم (هرتزل) عليه مليوني جنيه استرليني ليمنح اليهود امتيازاً بانشاء مستعمرات يهودية زراعية في فلسطين ، فرفض عبد الحميد عرضه ، وكاد الصهاينة ييأسون ، ولكن الحرب الكونية الأولى أنقذتهم من يأسهم ، وذلك أن كلاً من الطرفين المتحاربين كان يطمع في كسب تأييد اليهودية العالمية إلى جانبه ، وكان وعد بلفور ثمن فوز الحلفاء بدعم الصهيونية لهم ، فأعانتهم بأموالها ونفوذها في الولايات المتحدة لتخوض الحرب إلى جانبهم حتى نجحت ، ومنذ صدور هذا الوعد تعلّقت به آمال يهود العالم الهاربين من الاضطهاد ونقمة الشعوب عليهم ، لجشعهم المادي وتعصبهم الطائفي وخياناتهم وتخريبهم ، فأصبحوا ينتظرون يوم الهجرة الى فلسطين .

استلم اليهود وعد بلفور كلمات عاطفية مشجعة تغذّي آمالهم بالعودة الى بلد يزعمون أن لهم فيه حقوقاً تاريخية منذ ألفي سنة ! ولكنهم استطاعوا خلال ثلاثين سنة أن يحيلوا الكلمات حقيقة واقعة بجدّهم ودسّهم وكيدهم ، يقول (وايزمان) زعيمهم : « كانت مهمتي في كل مكان وزمان أن أوضح للصهيونيين أن تصريح (بلفور) ليس إلا إطاراً ،

علينا أن نملأه نحن بجهودنا»، والحق أن جهودهم لم تقف، فما يكاد الجنرال (اللنبي) يدخل القدس حتى يستقبل في مركز قيادته بالرملة اللجنة الصهيونية القادمة لدراسة الوضع في فلسطين ، ثم تنطلق الآلة الصهيونية ، تجمع المال لتشتري الأراضي العربية من أصحابها بأي ثمن ، وتسجلها ملكاً أبدياً للأمة اليهودية جمعاء ، ثم تقسّمها قطعاً وتؤجرها المهاجرين القادمين ، وتمنحهم القروض لبناء المساكن ، وتساعدهم على الاستيطان ، في ظل وارف من عطف حكومة الانتداب الانكليزية، وفي أشهر قليلة كانت الأرض الجرداء تتحول الى مستعمرات زاهية وجنات عامرة بالمواطنين المهاجرين، العاكفين على تعلم اللغة العبرية ، والخاضعين لعملية صهر قومي تجمع أشتاتهم ، وتنسق أمورهم وتوحدها .

ونظَّم اليهود أنفسهم في وكالة يهودية ترعاهم وتحمي مصالحهم : تشتري الأرض ، وتبني المستعمرات ، وتفوز بامتياز البحر الميت وثرواته، وتبني لليهود ميناء خاصاً في تل أبيب، لتجارتهم واقتصادهم.

لقد بدأت الخيوط الأولى للنكبة تبرز لكل عين، ولكن العرب لم يكونوا الى ذلك اليوم ليحسوا بالخطر الرهيب إحساساً كافياً ، وإذا تحرّكوا فلكي يقوموا بإضراب أو مشاغبات أو ثورات لا تلتقي عند هدف منظّم مدروس ، وكان الاختلاف بين زعمائهم يقسّم جموعهم شيعاً وأحزاباً تتناحر وتتعادى ، واليهود يتابعون تحصين

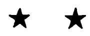
المستعمرات ، ويستعدون للمعركة المقبلة ، ويستقبلون كل يوم أفواج المهاجرين من كل صوب ، فيزدادون بهم قوة و تنظيماً !

وجاءت الحرب العالمية الثانية لتعينهم على إنشاء المصانع الضخمة، وتتيح لهم تدريب فتيانهم وتسليحهم ، حتى أصبح لهم في جيش الحكومة فيلق يهودي شارته نجمة داود ! وكانت دعاياتهم الهائلة تبني لهم في كل بلد رأياً عاماً يساندهم ويعطف عليهم ، لاضطهاد النازية لهم وفتكها بهم ؛ وعندما أوشكت الحرب أن تنتهي ، كان الرأي العام العالمي المخدوع بهم يناصرهم ، وبخاصة في الولايات المتحدة موطن نفوذهم الأول .

وما كاد النصر يتم للحلفاء حتى أسهمت الولايات المتحدة مع بريطانيا في البحث عن حل للمشكلة الفاسطينية ، وتمت اللعبة الناجحة بوضع القضية بين يدى منظمة الأمم المتحدة ، وأعلنت بريطانيا أنها ستنهي الانتداب على فلسطين في الخامس عشر من أيار سنة ١٩٤٨ .

كان النفوذ الصهيوني والأميركي يجند القوى في المنظمة الدولية إلى جانب اليهود ؛ وحين كشف الاتحاد السوفيتي عن نواياه أيضاً بتأييد قرار التشريد للشعب العربي من فلسطين ، وقفت الأمة العربية على باب تجربة عنيفة حمراء ، تدعوهم إلى إثبات وجودهم وقدرتهم على الاحتفاظ بكيانهم الأرضي الموروث عن آبائهم ، وكانت الجامعة العربية بدولها السبع يومذاك تقف في الميدان ، ولما لم تستطع دولها

الأعضاء في المنظمة الدولية إثارة الضمير العالمي ، لأن ضميرهـا هي لم يتحرك للنكبة ، ولأن الدول العربية التي يجري البترول من تحتهـا حبسها البخل والخوف والخيانة عن تهديد مصالح الغرب وامتيازاته فيها ، فقد صدر قرار التقسيم ، ودوّى الرصاص في أرض النبوات ، لتصبغها دماء الجريمة الكبرى .



الفصل الثاني

شعر النكبة في الدور الاول

عرضنا الحقائق التاريخية المخزية التي مهّدت لوقوع المأساة القومية العظمى ، وبان بذلك أن فلسطين كانت في السنوات الثلاثين الأخيرة، منذ وعد بلفور ، تسير نحو الهاوية المرعبة سيراً حثيثاً أعمى ! غير أن صوت الشعر كان يدوّي في أرجاء العالم العربي كله ، يوقظ النائمين ، ويحذّر الغافلين ، وينذر بالخطر القريب الداهم ، وكان أقوى الأصوات وأعمقها ينبعث من قلب شاعر فلسطيني كبير ، أدرك بوعيه وبصيرته أن ليل المحنة قريب ، ورأى قومه لاهين غافلين ، فصرخ في النائمين ، يهزّ ضمائرهم ، ويقوّي عزائمهم ، ويصور لهم المستقبل الأسود الرهيب ، إلى أن تظاهر عليه اليأس والداء فصرعاه عن عمر

الزهر والربيع ، ولمّا يتجاوز السادسة والثلاثين ، ورحل عن دنياه قبل أن يشهد بعينيه مصرع فلسطين !

ذلك شاعر فلسطين الكبير ابراهيم طوقان ، المولود في نابلس سنة ١٩٠٥ ، وقد أسهم بلده والقدس والجامعة الاميركية في بيروت في تكوين ثقافته ، ثم انطلق ولما يبلغ الخامسة والعشرين ليتولى التدريس في الثانويات فالجامعة الأميركية ، ثم أصبح مديراً للبرامج العربية في إذاعة فلسطين سنة ١٩٣٦ ، فلاحقته الدسائس ، وثارت الصهيونية على أحاديثه الاذاعية الموجهة توجيهاً عربياً قومياً سليماً ، فأقصي عن العمل ، ليلتحق بالعراق ، ويعود الى مهنة المعلم ، فأرهق بذلك نفسه،وعاوده المرض فردّه إلى نابلس ليطوي فيها صفحةشبابه .

ونقلّب اليوم ديوان ابراهيم طوقان فيطالعنا منه أنين قلب جريح، يقص في تفصيل حزين حكاية النكبة في دورها الأول ، مغمّسةبالألم واللوعة والخوف على مستقبل وطنه وأمته ، وتلتهب في جوانحها أنفاس من الحماسة الحزينة والرجاء الكئيب ، ترتعش كالنار أمام كل فدائي وشهيد ، فطوقان كان في شعره الوطني الذي يؤرخ نشأة النكبة صاحب رسالة . لقد أحب طوقان وطنه ومجّد فيه الجمال والبهاء :

موطني الجلال والجمالُ والسناءُ والبهاءُ في رُباكْ
والحياةُ والنجاة والهناء والرجاء في هواكْ
هل أراكْ

سـالماً منعَّمـاً وغانماً مكرَّماً

هـل أراكْ في عـلاكْ

تبلغ السماكْ

موطني

ومن قلب الشاعر المحب لوطنه تنطلق النقمة العارمة على المحتل المستعمر، في سخرية مُرة بالانكليز ووعدوزيرهم (بلفور) لليهود:

قـد شهدنا لعهـدكم بالعدالهْ وختمنا لجندكم بالبساله

وعرفنـا بـكم صديقاً وفياً كيف ننسى انتدابه واحتلاله

وخجلنا من (لطفكم) يوم قلتم وعـدُ بلفور نافذ لا محاله

كل أفضالكم على الرأس والعيـ ـن وليست في حاجة لدلاله

ولئن ساء حالنا فكفانا أنـكم عندنا بأحسن حاله

غير أن الطريق طالت علينا وعليـكم فمالنـا والإطاله

أجلاء عن البلاد تريـدو ن فنجلو أم محقنا والإزاله

ومن (لطف) المحتل وفضله أن أصبح العربي يرسف في الجور والفقر والفساد ، وأصبح المهـاجرون اليهود كالطوفان يهدّد العرب بالفناء :

منذ احتللتم وشؤم العيش يرهقنا فقراً وجوراً وإتعاساً وإفسادا

بفضلكم قد طغى طوفان هجرتهم وكان وعداً تلقيناه إيعـادا

وانصرف طوقان إلى ضمير الشعب ، ينفـخ فيه روح المقاومة

والجهاد ، ويتغنى ببطولة كل فدائي يتلظى قلبه بين جنبيه بالغاية النبيلة الكبرى ، أما فمه فهو :

صامت لو تكلّما   لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته   خُلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل   يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى   منهج الحق مظلما
وبلاداً أحبها   ركنها قد تهدما
وخصوماً ببغيهم   ضجت الأرض والسما

هو بالباب واقف   والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف   خجلاً من شجاعته !

حتى إذا سقط الفدائي شهيداً ، كان غناء طوقان اللحن الثائر الذي يشيّعه الى أبواب الخلود ، ويجعل اسم الشهيد أغرودة البطولة الهازجة في فم الزمن :

عبس الخطبُ فابتسمْ   وطغى الهولُ فاقتحمْ
رابط الجأش والنهى   ثابت القلب والقدم
نفسُه طوعُ همَّةٍ   وجَمت دونها الهمم
وهي من عنصر الفدا   ء ومن جوهر الكرم

لم يُشيَّـع بدمعـةٍ من حبيب ولا سكنْ
ربمـا أُدرج الـترا ب سليباً من الكفن
لا تقل أين جسمُه واسمُه في فم الزمن
أرسل النور في العيو نِ فما تعرف الوسن

وكان طوقان يرى تدفق آلاف المهاجرين اليهود على فلسطين، يتسللون إليها من البحر، بالتهريب حيناً، وباسم السياحة حيناً، وعين السلطة الانكليزية غافلة أو متغافلة، والعرب نائمون:

يهاجر ألفٌ ثم ألفٌ مهربا ويدخل ألفٌ سائحاً غير آيب
وفي البحر آلاف كأن عبابه وأمواجه مشحونةٌ في المراكب
بني وطني هل يقظةٌ بعد رقدة وهل من شعاع بين تلك الغياهب

ومن أين لبني وطنه أن يستيقظوا، وكثير منهم يخطف ذهب اليهود أبصارهم، فيبيعونهم أرضهم، وهم لا يدرون أنهم يرتكبون الجناية الكبرى، وأنهم لم يبيعوا أرضاً وإنما باعوا لعدوهم المتربِّص بهم وطناً:

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعاً بالمالِ، لكنَّما أوطانَهم باعوا
قد يُعذرون لو ان الجوع أرغمهم والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
يابائع الأرض لم تحفل بعاقبةٍ ولا تعلمتَ أن الخصم خدَّاعُ
لقد جنيتَ على الاحفادِ والهفي! وهم عبيدٌ وخدّامٌ وأتباعُ
وغرّك الذهبُ اللمّاع تحرزه إن السراب ـ كما تدريه ـ لمّاع

فكّر بموتك في أرض نشأتَ بها   واترك لقبرك أرضاً طولها باعُ

وكان طوقان يحذّر المخدوعين بالثراء الموقوت من ثمن ما باعوا من أراض ، ويتنبأ ـ وياحسرة القلب لصدق ماتنبأ به ـ أن احتلال اليهود لفلسطين آتٍ ، وأن يوم الرحيل عن الديار قريب :

هيهات ذلك إن في   بيع الثرى فقدَ الثراء
فيه الرحيل عن الربو   ع غداً إلى دار الفناء
فاليومَ أمرحُ كاسياً   وغداً سأُنبذُ بالعراَء

وأكثر ما كان يروع طوقان مايراه من خيانة زعماء البلاد لقضيتها ، فقد كان هؤلاء الزعماء سماسرة البلاد ، يخدعون الشعب ويخدرونه بمعسول اللفظ ، ويمزّقون بأهوائهم وخلافاتهم وحدته ، ليشغلوه بالتناحر فيما بينه ، وينصرفوا في غفلته إلى بيع البلاد :

أما سماسرة البلاد فعصبةٌ   عارٌ على أهل البلاد بقاؤها
هم أهلُ نجدتها وإن أنكرتهم   وهمُ ـ وأنفك راغمٌ ـ زعماؤها
وُحماتها ، وبهم يتمّ خرابُها   وعلى يديهم بيعُها وشراؤها

ويحاول طوقان أن يكشف للشعب الغافل عن وجه الزعامة وخياناتها القناع :

حبّذا لويصومُ منّا زعيمٌ   مثل(غَنْدي) عسى يُفيدصيامُهْ
لايصُمْ عن طعامه ، في فلسطيـ   نَ يموتُ الزعيمُ لولا طعامُهْ
ليَصُم عن مبيعه الأرضَ يحفظ   بقعة تستريحُ فيها عظامُهْ!

ويصرخ طوقان في أذن الشعب يحذّره من خيانات هؤلاء الزعماء، فالوطن قد ابتلي بهم، وهم عصابة من الدلالين، لا يخافون الله في وطنهم:

وطني مبتلى بعصبة دلاّ لين لا يتّقون فيه الله!

ولكن الشعب غافلٌ نائم مأخوذ بحماسة زعمائه الخونة:

فإلى متى يا ابن البلا دِ وأنت تؤخذ بالحماسهْ
وإلى متى زعماء قو مك يخلبونك بالكياسهْ
ولكم أحطنا خائناً منهم بهالات القداسهْ

وكأن طوقان يهز بصرخاته أصناماً حجرية لا تتحرك، ولا تُبالي بمصائرها:

أمامك أيها العربي يومٌ تشيبُ لهوله سودُ النواصي
وأنت كما عهدُتك لا تبالي بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمسه الأداني وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رَحْبُ القصور غداً بباق لساكنها ولا ضيقُ الخصاص

ولم يكن طوقان يُخفي تشاؤمه، وهو يرى الشقاق يمزّق وحدة الأمة، فيُعلن ـ والحسرة تدمي قلبه ـ يأسه من الخلاص:

والله لا يُرجى الخلاصُ وأمركم فوضى وشملُ العاملين ممزّقُ!

وهكذا أدى طوقان رسالته الوطنية خير تأدية، فدعا بصدق، وحذّر وأنذر، وصوّر الاحلام وبكى الآلام، ولم يصانع المستعمرين، ولم يجامل زعيماً، ولم يسكت عن خائن، وخلّف

في ديوانه قولة حق دامغة تفصّل أسباب النكبة، وتحدّد تبعة المسئولين، فكان بكل ذلك شاعر النكبة الأول في هذا الدور، طغى بقوة شاعريته، وصدق وطنيته، وعمق انفعالاته الشعرية، على أكثر من عاصره من شعراء النكبة، ولعلّ من رحمة الله بطوقان أن يقبضه اليه، فلا يتاح له أن يشهد شيئاً من الدور الثاني من النكبة، ولو عاش لرأى قومه مشرّدين في كل أرض، هائمين على وجوههم في الدروب المظلمة، وقد خلّفوا وطنهم المغصوب نهباً لحفنة من شذاذ الآفاق، وأسلموا أنفسهم إلى البؤس والحرمان والعراء ...

يجب ألا ننسى أن الشعراء العرب من كل قطر أسهموا في غناء الدور الأول من النكبة، ولكن شعراء فلسطين هم الذين نهضوا بالحظ الاوفى، فكان صوتهم ينطلق من أرض النكبة، يحكي أحداثها ويرسم أبعادها، ويستثير نخوة العرب في كل مكان لمدّ يد العون الى هذا الجزء المنكوب من أرض العرب.

إلى جانب هذه الصورة التي رسمها طوقان للنكبة في دورها الأول لا بد من ابراز بعض الملامح المتميزة التي خطها شعراء آخرون، وسنقتصر على عدد منهم، يمثلون في غناء النكبة اتجاهات أو تيارات، ويصدرون فيها عن مذاهب وعقائد يؤمنون بها ويدعون إليها.

كان ابراهيم طوقان سليل أسرة اقطاعية كبيرة في نابلس، وعلى الرغم من نفور الشاعر من الاقطاعية، ونضاله الدائب ليكسب لقمة عيشه

بكدّه طوال حياته ، فإن اللون الاشتراكي لم يصبغ غناءه القومي لأحداث النكبة ، وهنا يأتي دور شاعر فلسطيني آخر كانت مأساة بلاده تعيش في أعصابه الثائرة ، فتتدفق على فمه شعراً يهدر بالألم والقوة والرغبة في الاستشهاد .

ولد الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود عام ١٩١٣ في (عنبتا) بين نابلس وطولكرم، من أسرة فلاحين تزرع الارض وتمنحها الجهد والعرق ، ثم لاتفوز منها بغير العيش الكفاف ، ولهذا لم يستطع عبد الرحيم محمود أن يزيد على تحصيله الثانوي في طولكرم ونابلس شيئاً ، فترك الدراسة ليعمل شرطياً ثم معلماً ؛ وفي سنة ١٩٣٦ ألقى بنفسه في أتون المعركة ، فطاردته السلطة ، فالتجأ إلى العراق فترة عاد بعدها إلى فلسطين ؛ وفي سنة ١٩٤٨ نجده متطوعاً في جيش الانقاذ ، يخوض المعارك ،ويستشهد في واحدة منها عند قريةالشجرة ، مخلّفاً صبية ثلاثة وزوجاً لم تستطع أعصابها أن تحمل الفاجعة ، فجنّت لمقتله ..

هذه الخطوط السريعة من حياة الشاعر الثائر تنعكس في شعر عبد الرحيم محمود ، فإذا هو بطل مغوار ، يحمل دوماً روحه على يده ويقتحم غمرات الموت غير هيّاب ولا وجل :

سأحمل روحي على راحتي — وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسرّ الصديق — وإمّا ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان — ورود المنايا ونيل المنى

لعمرك إني أرى مصرعي ولكن أغذّ إليه الخطا
أرى مقتلي دون حقي السليب ودون بلادي هو المبتغى
يلذّ لأذني سماعُ الصليل ويبهج نفسي مسيل الدما
وجسم تجندل في المعمعان تناوشه جارحات الفلا

. . .

لعمرك هذا ممات الرجال فمن رام موتا شريفاً فذا
أخوفاً ! وعندي تهون الحياة وذلاً ! وإني لربّ الإبا
بقلبي سأرمي وجوه العداة وقلبي حديد وناري لظى

وعندما زار الأمير سعود فلسطين سنة ١٩٣٦ ألقى الشاعر بين يديه قصيدة تفيض بالألم والشكوى ، وسأله فيها :

المسجد الأقصى أجئت تزوره أم جئت من قبل الضياع تودّعهْ !

وفي شعر عبد الرحيم محمود نغمة اشتراكية مؤمنة ، وفي جوانحه روح فلاح ذاق من جور الإقطاع في وطنه كل مرارة ، وبلا بنفسه عوز الفقير وحاجته ، فأرسل من أغوار قلبه هذه الصرخة المتمردة الثائرة على الوضع الاجتماعي الفاسد :

بغى في قسمة الأرزاق ناسٌ وقالوا : هكذا قسم الإله !
وقالوا : إن أحب اللهُ عبداً برزقته المقدّرةِ ابتلاه
دعونا ، إن يكن هذا صحيحاً يرِ الفقراء معبوداً خلاه
لقد وصفوا الإله بشرّ ظلم بما قالوا ! تنزّه في علاه

وهناك شاعر فلسطيني ثالث ، أسهم في غناء النكبة بدوريها ، وهو اليوم لاجىء في الاقليم الشمالي ، ولا يزال يوالي إنشاد أغانيه الحزينة الرائعة ، يبث فيها شوقه اللهفان إلى وطنه المغصوب .

ولد عبد الكريم الكرمي ، المعروف بأبي سلمى ، في طولكرم عام ١٩٠٧ من أسرة شهرت بالعلم والوجاهة ، فأبوه الشيخ سعيد الكرمي كان من أعلام فلسطين ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، وقد أتيح لأبي سلمى أن يتم تحصيله الثانوي في دمشق قبل دراسته للحقوق في القدس ، وعمل بعد ذلك محامياً في حيفا الى سقوطها عام ١٩٤٨ ، فنزح منها الى عكا ، ثم اختار دمشق دار إقامة له ، فعاد إلى البلد الذي شهد من قبلُ ذكريات صباه ، ليعمل مدرساً في ثانوياته .

كان أبو سلمى يصدر في شعره ، في الدور الاول من النكبة ، عن عقيدة يسارية حانقة ، تهيج في نفسه الثورة على أصحاب المال والسلطان ، وأشهر شعره في هذا الدور قصيدته الدالية التي يهجو فيها ملوك العرب ، ويندد بموقفهم المخزي الذي شل حركة الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ ، وهذه القصيدة نموذج لشعر أبي سلمى الثائر الذي تُلهب النقمة العارمة أنفاسه ، ويؤجج الحقد قوافيه :

انشر على لهب القصيد   شكوى العبيد إلى العبيد
شكوى يرددها الزما   ن غداً إلى أبد الأبيد

قالوا : الملوك ! وإنهم لايملكون سوى الهبيد[1]
دكّت عروش زيّنو ها بالسلاسل والقيود
سحقـاً لمن لايعرفو ن سوى التعلّل بالوعود
وأذلّهم وعـد اليهـو د ولا أذلَّ من اليهود

ومن حمم القصيدة اللاهبة يرسل أبو سلمى لعناته إلى الملوك، واحداً إثر واحد ، وفي مقدمتهم ابن السعود :

إني لأرسلها مُجَلْـ جلةً إلى الملك السعودي

ثم إلى صاحب عمان ، الملك عبد الله :

وأبو طلال في ربا عمّان يحلُم بالحدود
اقعد فلست أخا العلا والمجد وانعم بالقعود
المجد أن يحمى الرصا ص على المدى حمر البنود
واحكم على الشطرنج ليد س على الفيالق والجنود

ثم إلى الإمام اليمني في عاصمته السعيدة :

عرّج على اليمن السعيد وليس باليمن السعيد
واذكر إماماً لا يزا لُ يعيش في دنيا ثمود

ثم إلى بغداد والعرش الهاشمي فيها :

واعطف على بغداد واند دب عرش هرون الرشيد

---

(١) ـ الحنظل .

حتى إذا جاء دور فاروق، ولحيته التي كان يرسلها يومذاك، ليضلل بها شعبه، صرخ الشاعر به :

دع سبحة التضليل واخـ   لع عنك كاذبة البرود
أحسبت أن الملك بالتـ   سبيح يُطلب والورود

وكأن أبا سلمى يرى أن هذه اللعنات الفردية لا تشفي غيظه، فيمد يده بهذه الصفعة الجماعية :

إيه ملوك العرب لا   كنتم ملوكاً في الوجود
هل تشهدون محاكم التـ   فتيش في العصر الجديد
قوموا اسمعوا من كل نا   حية يصيح دمُ الشهيد
قوموا! انظروا الأهلين بيـ   ن الوعد ضاعوا والوعيد
ما بين مُلقى في السجو   ن وبين منفي شريد
أو بين أرملة تولـ   ول أو يتيم أو فقيد
قوموا انظروا الوطن الذبيـ   ح من الوريد الى الوريد

ويلتفت أبو سلمى الى الشعب، بعد أن نفض يديه من الطبقة الحاكمة في البلاد العربية، فيحاول أن يوقظه، ويطالبه جهرة بالاتجاه إلى اليسارية :

يا أيها الشعب النبيـ   لُ أمنت من شر العِثار
أنت الذي تهدي السبيـ   لَ من اليمين الى اليسار

وبعد اليسارية تكون الثورة ويتم التحرير :

يامن يُعزون الحمى ثوروا على الظلم المبيد
بل حرروه من الملو ك وحرروه من العبيد

وفي هذا الدور اتجاه يميني في غناء النكبة ، كان أصحابه يؤمنون بأن السياسة الاستعمارية في فلسطين حرب صليبية جديدة ، وممن يمثلون هذا الاتجاة الشاعر الاسلامي برهان الدين العبوشي ، وكان لسان حال جمعية الشبان المسلمين في فاسطين ، ومن جيد شعره قوله في قصيدة (الوطن المبيع) :

لهفي على الليث المهدد غابُه ما كان أجدر لو يموتُ بغابه
والحر يدفع عن حماه بسيفه فإذا تحطم سيفه فبنابه
فانمش للموت الزؤام كما مشى جيش النبي بشيبه وشبابه

وهكذا كان شعر النكبة في دورها الأول ، على الرغم من اختلاف مشارب قائليه ، وتعدد التيارات التي يصدر عنها ، يدعو الشعب دعوة واحدة إلى القوة والتعبئة والنضال ، لانقاذ الوطن ، والصمود أمام الغزو الصهيوني والاستعمار الغربي .. كل ذلك قبل أن يُقر التقسيم وتقع الكارثة العظمى .

★ ★

الفصل الثالث

الدور الثاني : النكبة بعد قرار التقسيم

عندما أوصت اللجنة الانكلو أميركية بتقسيم فلسطين ، ضج عربها وأرغت الجامعة العربية وأزبدت ! وتبارت حكوماتها في إرسال برقيات الإنذار والتهديد ، وصدر قرار التقسيم ، والتقى مجلس الجامعة لدراسة الوضع الجديد ، وانتهى إلى أن يوصي بإرسال جيش للانقاذ الى فلسطين من ثلاثة آلاف عربي متطوع ، بعد أن عرف أن لدى اليهود مالا يقل عن سبعين ألفاً من المجندين المسلحين !

وتكوّن جيش الانقاذ المأمول ، وكان خليطاً من أقلية مخلصة مستشهدة ، وأكثرية مرتزقة لاهية ، وقيادة هزيلة الخبرة والتنظيم والتجهيز والإيمان ! وعندما كان هذا الجيش يدخل فلسطين ، كانت الأسر

الفلسطينية الغنية تنزح الى مصر وسورية ولبنان ؛ وتوالت الضربات على جيش الإنقاذ فشلَّت مافيه من قوة ، والدول العربية تتظاهر أمام شعوبها بالاستعداد والاستبسال ، ولم تقم بعمل عسكري حاسم ؛ وانتهز اليهود الفرصة فشنوا عدواناً وحشياً مقصوداً على دير ياسين ، فانتهكوا الأعراض ، وذبحوا السكان ، ونجحوا في نشر الذعر والخوف ، وأصبح هم العربي في فلسطين أن ينجو بنفسه وأهله ، وتدفقت أمواج اللاجئين على الضفة الغربية من الأردن ، والبلاد العربية المجاورة ، وبهذا السلاح الماحق من الرعب الجماعي وانهيار الأعصاب أجلى اليهود العرب عن طبريا وحيفا ويافا وعشرات المدن والقرى ، حتى إذا أقبل الرابع عشر من أيار عام ١٩٤٨ ظهر للعالم أن المجتمع اليهودي في فلسطين أصبح دولة قائمة ، وأن المجتمع العربي فيها بدأ يلفظ أنفاسه ، ويتحول الى قطعان مذعورة من الغرباء اللاجئين الهائمين على الدروب ! أما الذين لم يبرحوا يقاومون ، فلم يكن لديهم من أمل سوى تدخل الجيوش العربية لاسترداد فلسطين !

عند ذلك أعلنت الدول العربية السبع ، وبضغط من شعوبها وحماستها ، الحرب على اسرائيل ، في الدقيقة الاولى من اليوم الخامس عشر من أيار ، ودخلت فلسطين بعض الفرق العسكرية العربية ، للقيام « بنزهة حربية » في الأرض المقدسة .

كان في رأس كل حاكم عربي هدف لاينام له الليل ، ومطامع يأمل

أن يجنبها من وراء المعركة (الرابحة !) التي أمر جيش بلاده بأن يخوضها :

أما فاروق فكان يريد أن يسترد احترام شعبه له ، بعد أن فقده بمباذله وسوء أخلاقه وتصرفاته ، ويريد أن يملأ جيبه بالأرباح المستورة من صفقة الأسلحة الفاسدة ، ويريد أن يحتفظ بالزعامة في الوطن العربي .

وأما ابن السعود فكان يريد أن يُلهي المطالبين بإلغاء امتيازات الزيت الاميركية في بلاده ، ليظل ثمن زيت الله ينصب (دولارات) لاحصر لها في جيبه العامر ، ولن يضيره بعد ذلك أن يرسل عدداً من البدو المسلحين للقتال مع الجيش المصري .

وأما عبد الله فكانت تلتمع في عينيه آمال نهمة ، فشوقه الى ضم الضفة الغربية بين ذراعيه شوق قديم ، ويؤكد العارفون أنه اجتمع بزعماء اليهود ، ومن بينهم غولدا مايرسون (التي ستصبح وزيرة للخارجية الاسرائيلية) واتفق معهم على قبول قرار التقسيم ، وتعهَّد لهم بأن يقف الجيشان الأردني والعراقي الزاحفان على فلسطين عند الحدود التي رسمها قرار التقسيم[1] !

---

(١) تفصيل هذه الخيانة في كتاب (النكبة) لعارف العارف ج ١ ص ١٩٧ ، وفي مذكرات قائد القدس عبد الله التل صفحات سود أخرى تقص بإسهاب أخبار هذه الخيانة وغيرها ...

وأما عبد الإله ، الوصي على العرش العراقي، فكان يريد أن يدعم آمال عمه عبد الله في توسيع رقعة عرشه الهاشمي ، وأن يتظاهر للشعب العراقي بنصرة فلسطين ، بإرسال فرق من الجيش العراقي الى الأرض المقدسة !.

وأما الإمام اليمني السعيد فلم يجد من شعبه حماسة واندفاعاً ، فاكتفى — أعزه الله — بالدعوات الصالحات بالنصر المؤزر للجيوش الزاحفة !

وأما لبنان الجبل الأشم فلا يستطيع أن يتخلف عن تمثيل دوره السباعي في المسرحية الحربية ، وهو جار فلسطين المستغيثة !

وأما سورية — أخيراً — فقد كانت محنة فلسطين محك الوعي القومي الناضج فيها ، وكانت القلوب المؤمنة تضطرم عزيمة وحماسة ، ولكن الحماسة وحدها لا تكفي ، فالجيش السوري الباسل كان صغيراً ، ابن سنتين أو ثلاث ، تنقصه الكثرة والمعدات والأسلحة ، وإن لم تنقصه الرغبة في التضحية والاستشهاد .

وهكذا زحفت الجيوش العربية على فلسطين ، ومرّ أسبوع وأسبوع ، والجيوش العربية تقتحم ما أقرّ التقسيم إبقاءه عربياً من الأرض الشهيدة ، دون معارك تذكر ، ويؤكد العارفون أنه لو لا هجوم سلاح الجو المصري على المراكز اليهودية ، وهجوم الجيش السوري الفتي على سمخ واحتلاله مشمار هاياردن ، لما كان في التمثيلية

الحربية مشهد جدي واحد يوهم الشعوب العربية أن القتال تدور رحاه في فلسطين !.

لقد كانت الجيوش العربية متفرقة متخاذلة ، قليلة العدد ، هزيلة الخبرة ، يعوزها التدريب والتنظيم ، ولم تكن هذه الجيوش معدة لخوض معارك حربية، بل كان أكثرها فرقاً أعدها الملوك لاستقبالاتهم واحتفالات الأعياد ، والقيام (بالاستعراضات) في شوارع العواصم العربية ! أما السلاح فكان فضلات عتيقة فاسدة ، خير مافيها طيارات لا مدافع لها ، ومدافع لا قنابل لها ، وقنابل لا تنفجر ! وعلى الجيوش العربية أن تقاوم بهذه الأسلحة عدواً منظماً مدرباً ، قد عبأ جميع قواه البشرية والمادية والعقلية والسياسية ، وفي يده أحدث الأسلحة وأفتكها وأمضاها !

لهذا كله كان على الدول العربية أن تقبل الهدنة الاولى لمدة شهر ، وقد تمكن اليهود خلاله من أن يعززوا قواهم ، والدول العربية تجتمع حكوماتها المجرمة في مشاورات مسرحية لا طائل منها ، حتى إذا عادت الحرب برز الخلاف بين العرب أنفسهم ، فاختلف الهاشميون وغير الهاشميين في قضية تأليف حكومة فلسطينية ، وانسحب الجيش الأردني من اللد والرملة ، وتبعه الجيش العراقي ، وخلا الميدان بذلك أمام القوات الاسرائيلية ، فتقدمت واحتلت عدة مدن ومئات القرى ، ومساحات واسعة من الأرض العربية ، وهرب السكان العرب هائمين

على وجوههم ، وقد باغتهم العدو في دورهم ، وتفرقوا مذعورين ، يطلبون النجاة بأنفسهم ، وخلّفوا في أرضهم كل ما يملكون ، وأقبلوا يلتجئون الى المناطق العربية ، بثيابهم التي على أجسادهم ، وازداد عدد اللاجئين عشرات الألوف ! .

ازداد صوت الدول العربية ضعفاً بتفرق كلمة حكوماتها ، واضطرت الى قبول قرار مجلس الأمن بوقف القتال بعد عشرة أيام من استئنافه . .

وتفاقم الخلاف بين الحكومات العربية ، فقررت الجامعة العربية انشاء حكومة عموم فلسطين في غزة ، لتقف أمام أطماع الملك عبد الله ، وأجاب هـذا على قرار مجلس الجامعة بضم الضفة الغربية من الأردن الى الشرقية ، وأعلن وحدة المملكة الأردنية العتيدة ! وبذلك فاز عبد الله من الغنيمة بنصيب الأسد ! .

ومضت أيام الهدنة الثانية ، والحكومات العربية سادرة في تناحرها وشقاقها ، واغتنم اليهود الفرصة ، فجمّعوا قواهم وهاجموا بها الجيش المصري ، واستولوا على النقب ، وتمكنوا من محاصرة فرقة كبيرة من الجيش المصري في الفالوجة .

وفي خندق من خنادق الفالوجة المحاصرة كان ضابط مصري شجاع يربض مع حفنة مؤمنة من جنوده : في عينيه العميقتين ومضات العزم ، وفي قلبه الكبير تتوهج الشعلة المقدسة ، ذلك لأنه أدرك بعمق

ذاته ، ووعى بدقة طبيعة النكبة منذ أبعد أدوارها ؛ ومن قلب هذا الضابط المصري المحاصر في الفالوجة ستنطلق الشرارة المنقذة ، فتطيح بالعروش وتحطم أذنابها ، وتثور لكرامة الأمة العربية المهدورة ، ولجيوشها التي غُرر بها لإرضاء النزوات والأطماع .

يقول الرئيس جمال عبد الناصر في رسالته « فلسفة الثورة » وهو يتحدث عن بذور الثورة في نفسه ، محدداً دور النكبة والحصار في الفالوجة في تفجير براكين الثورة في قلبه : « لم ألتق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر ، وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل .. وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني إلى مشاكلنا : كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضرباً بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروّعاً ، وكثيراً ماقلت لنفسي : هانحن أولاء هنا في هذه الجحور محاصرون ، لقد غُرّر بنا ، دُفعنا إلى معركة لم نُعدّ لها ؛ لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتُركنا هنا تحت النيران بغير سلاح ! وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيري ، كنت أجد خواطري تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود إلى مصر ، وأقول لنفسي : هذا هو وطننا هناك ، إنه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير !... »

وهنا كان موقف الحكومات العربية حرجاً أمام شعوبها ، فراحت

تخدع الجماهير لتخفي عنها الحقيقة السوداء ، وتريها الهزيمة نصراً والعار مجداً والذلّ فخراً ! ثم بدأت هذه الحكومات ، صاغرة ذليلةً ، تعقد الهدنة مع اسرائيل ، حكومةً بعد أخرى ، وتخدّر شعوبها بالتهديد بالجولة الثانية ، وراحت كل دولة تتنصّل من جريمتها ، وتحمّل الأخرى مسئولية النكبة والانكسار والهزيمة ، وتأمل أن ينسى التاريخ والضمير العربي جناية الحكام ودورهم القذر في كارثة العرب القومية العظمى .



الفصل الرابع

شعر النكبة في الدور الثاني

لئن كانت نكبة فلسطين أعنف تجربة قاستها الأمة العربية في العصر الحديث ، فإنها أيضاً أعظم تجربة يعانيها الأدب العربي المعاصر ، ذلك أن النكبة قدمت لكل كاتب وشاعر ، من مآسيها وويلاتها وأهوالها ، مادة للقول لا تنتهي ، وكيف تنتهي ومليون من المتشردين اللاجئين لا يزالون الى اليوم هائمين على وجوههم ، غرباء بائسين ، تروى وجوههم الشاحبة ونظراتهم اليابسة ، قصة النكبة وأحداثها ، وتشكو أجسامهم المعلولة برد الكهوف والخيام البالية ! بل كيف تنتهي والقزم اليهودي لا يخفي مطامعه النابحة لتحقيق خريطة التوراة : « وهبتك يا إسرائيل ما بين دجلة والنيل ! »..

لقد كان حظ الشعر في غناء النكبة في دورها الثاني ضخماً حقاً ،

فما من شاعر في العالم العربي كله لم تدفعه ربة شعره الى بكاء الكارثة العربية في فلسطين ،فدّلل الشعر بذلك على أن النكبة الفلسطينية ليست اقليمية محدودة ضيقة ، بل هي كارثة قومية هزت الضمير العربي في كل مكان من أرض العرب ، وهاجت وجدانه الشاعر ، فانطلق الغناء من كل فم ، ولهذا لم يكن باستطاعتنا أن نعرض لكل شاعر أسهم في القول في النكبة ، وحسب دراستنا أن تظل بحثاً تخطيطياً يعرض الخطوط الكبرى فى النكبة ، ويرسم بإيجاز أصداءها في الشعر العربي المعاصر .

يبدأ العرض الشعري المتسلسل لمشاهد النكبة في دورها الثاني منذ اليوم الخامس عشر من أيار سنة ١٩٤٨ ، ولهذا اليوم البغيض ذكريات سود عند شعراء النكبة ، وهذه صرخة واحد منهم ، هو الشاعر عيسى الناعوري ، يرسلها لاعناً ذلك اليوم الأسود ، معدداً ضحاياه ، منددا بأهواله :

يالعنةَ الزمن البغيـ	ـض وأسوأ الأيام ذكرى
هذي ضحاياك الكثا	رُ تُميتُها الأيامُ قهرا
تقضى الحياة على الطوى	وتلوك مسغبةً وصبرا
ياصورة الجبن الأذ	ل وأبغض الأيام طُرّا
لا كنت من يومٍ به	صار انتخاء العُرب غدرا

وكرامة الشعب العربـ ـق هدرتها، ومضيت، هدرا

ومنذ ذلك اليوم الأسود البغيض بدأت «المهزلة العربية» كما يسميها بحق الشاعرُ الفلسطيني محمود الحوت، فقد أطبقت الدول السبع على فلسطين، لتطردمنها العصابات الصهيونية، وتلقي بها في البحر، ولكنها طردت عرب فلسطين وشردتهم من ديارهم لتقدمها سكناً للمعتدين الآثمين. يقول محمود الحوت:

أُتطبق «السبع» إطباقاً لتخرجها وتُسكن المعتدي أزهى مغانيها
فهل سمعتم بحربٍ كالتي نكبوا بها فلسطين واجتاحوا أهاليها
وشتتوهم ضحايا هائمين على وجوههم بعد تركين العدى فيها
وعاد كلٌ الى الأوطان ترهقه رسالة كان في (الأقصى) يؤديها

لقد عادت الجيوش العربية من فلسطين، بعد نجاح «المسرحية الحربية» كما يصورها الشاعر خليل زقطان:

وهنا انظري تلك الجيـو ش السبع والعُـدد القويهْ
أمّت ميادين النضا لِ تصول كاذبة الحميّه
وتراجعت من بعدما ضمنت نجاح المسرحيه

وكان لتراجع تلك الجيوش السبعة أمام عصابات اليهود صدى ساخر، وظهرت صحف أوربا يومذاك، وفي بعضها لمزات ووخزات لجيوش «الأصفار السبعة» كما سمتها، وفي ذلك يقول زقطان نفسه ويحق له أن يسخر ويتهكم:

جيوش السبعة الأصفار كلُ تراجع حاملاً غار القيودِ
يزفّ لحاكمية نجاح كيدٍ رماكِ بكلّ قتّال مبيد

وبتراجع الجيوش العربية أخذت أمواج اللاجئين تتدفق على البلاد العربية المجاورة ، وكانت الشعوب لاتزال حتى ذلك اليوم مخدوعة بمهازل حكامها ، فظنت أن هؤلاء اللاجئين هاربون من المعركة والتضحية والاستشهاد ، وأساء بعضها استقبالهم ، واتهمهم بعضٌ بالخيانة والجبن ، فرد الشعراء الفلسطينيون هذه التهمة ، وهذا أحدهم ، الشاعر محمد العدناني ، يلجأ الى الزرقاء في شرقي الأردن، فيجد من أهلها من يتهمه بالهرب ويعيره بالخوف ، فيرد عليه معاتباً ، مبيّناً لكل مخدوع أن عرب فلسطين وقفوا وحدهم ثلاثين عاماً يصدون عدوين غادرين هما الصهيونية والاستعمار ، وكانوا خلال ذلك للأمة العربية درعاً واقية ، حتى عجزوا فاستغاثوا ، فأغاثتهم الخيانة :

ألوماً على ما نابنا من مصائب ولم نجترح إثماً ولم نقترف ذنبا
وكنا لكم درعاً تقيكم عصابة تزفُّ الأسى والشرّ والهول والجدبا
وذُدناهمُ عنكم ثلاثين حجة بعزم محا شُمَّ المعاقل والهضبا
ونحن صمدنا للعدوين وحدنا صموداً أثار الكون قاطبةً عجبا
هممتُ بلوم العُرب لوماً مُدوّياً على ما بدا منهم فردّتني القُربى

ولكن الشاعر عيسى الناعوري كان تألمه من التهمة أعمق من أن

تردّه القُربى ، فقذف بالاتهام في وجه أصحابه ، وراح يفضح زمر الخيانة والغدر :

كذبوا فكم جاهدت قبلُ وحيدةً خصمين جبّارين ، دون وناءِ
حقبٌ طوالٌ لم تهن لك عزمةٌ فيها ولم ترضيْ بالاستخذاء
شهدت لك الأيام واعترف العدى ببطولة جبارةٍ شمّـاء
إن كان ذاك خيانةً ياحبـذا لو عشتِ خائنة بلا نُصراء
هم أسلموك إلى العدوّ فمرغوا بالعـار كلَّ كرامةٍ وإباء
بل مرّغـوا تاريخ يعرب كلَّـه بمذلةٍ لاتنتهي نكراء
زمرٌ تعيش على الخيانة مثلمـا عاش البعوض على خبيث المـاء

وفي طليعة زمر الخيانة تجيء زمرة الملوك والحكام والرؤساء ، وقلّ أن نجد بين شعراء النكبة من لم يرجمهم بحجر ، ولكن أباسلمى يفوق في هذا المجال سائر شعراء النكبة ويسبقهم :

يارفاق الدهر هـل شرّدكم في الورى غدرُ عدوٍ أم مُحبِ
زعماءٌ دنسوا تاريخكـم وملوك شردوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لهـا سلمت أوطانكم من غير حرب
دول تحسبها شرقيةً وإذا أمعنتَ فالحـاكم غربي

ولقد رأينا منذ الدور الاول للنكبة نقمة أبي سلمى على الملوك وخياناتهم ،ومن الطبيعي أن تزداد نقمته في هذا الدور عليهم حدةً

وعنفاً ، بعد أن بدت لكل ذي عين خيانة الملوك وأصحاب العروش عارية سافرة ، فإذاهم أذناب حقيرة للمستعمر ، يتنافسون في مرضاته ، ويتيهون بالخيانة :

أذُنابى المستعمرين ملوك ؟ أملوكٌ وهم مطايا الأعادي
يتبارون بالخيانة تيهاً يالتيه الجُناة بالأصفاد !

وليس بينهم ملك صاحب عزة و كرامة ورجولة ، بل كلّهم أذلاء ، باعوا فلسطين دون أن ترتعش ضمائرهم لهول جريمتهم :

قال الملوك غداً نحمي دياركم ليت الأذلاء ماقالوا وما فعلوا
وعلّلونا بساح المجد ننزلها إذا همُ ساعة الجلى هم العلل
قالوا الكرامة ، قلنا أين صاحبها ؟ قالوا : الرجولة ، قلنا :أيهم رجلُ
باعوا فلسطين فلتهنأ ضمائرهم أما تراها على(الدولار) تشتعل

لقد ذل ملوك العرب حتى ليأنف العار ، ذات العار ، من أن ينتسب اليهم :

أملوك ! وهم إذا نسب العا رُ اليهم أبى انتساباً معيبا

وهكذا وفّى أبو سلمى خيانات الملوك حقها من التشهير ،ولكنه كان يختصّ الملك عبد الله من بين الملوك بالضربة الحانقة :

خيانات الملوك وذلّ عرش أقيم على الخيانة والخراب
سعدنا في البلاد وحين سادوا غدت مرعى الثعالب والذئاب

ولقد شن شعراء النكبة حملات عنيفة أيضاً على الجامعة العربية ودولها ، فكشفوا القناع عن وجه الجامعة ، وأظهروها عارية أمام الشعوب العربية المخدوعة بمهازلها ، فإذا هي ربيبة الاستعمار ، ولدت في حجر الانكليز ، ورضعت من أثداء المستعمر ، فلما نمت واستوت غدت مطيّةً ذلولاً له ، ودمية طيّعة بين يديه ، يحركها كما يشاء.

يقول أبو سلمى :

لنا دول ليتها لم تكن مطايا وأذناب مستعمرين
وجامعة لم تزل دميةً يخف إليها الرجيم اللعين

وهاجم شعراء النكبة كلهم بضراوة الاستعمار والمستعمرين ، لأن الاستعمار من أهم عوامل النكبة ، فبين الاستعمار واسرائيل رابطة لا تنفصم ، فالاستعمار يسخّر اسرائيل ، فيجعل منها قاعدة لكل عدوان منه على العالم العربي ، ويتخذ منها مخلباً لضرب كل حركة قومية واستقلالية في بلاد العرب ، والصهيونية العالمية تسخّر الاستعمار بدورها لحماية اسرائيل ، فتحطيم اسرائيل إذاً لا يتم إلا بالقضاء على الاستعمار الذي يستغلها ويحميها ، ولهذا يثور شعر النكبة على الاستعمار وأذنابه ، ويحمّل الدول المستعمرة مسئولية النكبة .

يقول الشاعر هارون هاشم رشيد :

لولا خداع الانكليز وغدرهم ما عاش في أرض الأسود كلاب

والغرب ! يا للغرب إن قدومه نحو البلاد مصيبة وخرابُ
هو أُخطبوط فاجر مستعمر في كل ناحية له أذنابُ

ويقول الشاعر خليل زقطان :

هي خطة وحشية لا ترفق الغرب واضعها وقومك طبَّقوا
سنظل أشباه العبيد يضلنا هذا « الحليف » بفنه ويفرّق

وشعر النكبة يُدمي القلب ويبكي العين حقاً عندما يقف أمام خيام اللاجئين ، ليقص قصة العربي التائه ! لقد انتهى دور اليهودي التائه منذ أصبح له في اسرائيل وطن قومي يحميه ، وبيت يُظله ويؤويه ، وأرض تطعمه من خيراتها وتغنيه ، وهام العربي على وجهه ، بلا وطن ولا بيت ولا أرض ، يلوب في الدروب ، حافياً عارياً جائعاً ، ذليل الصوت كسير النفس والقلب ، ينتظر من الشعوب فضلات الإحسان ليسد بها رمقه ، وهو الذي خلّف في وطنه السليب مئات الملايين من الجنيهات !.. حتى إذا أقبل الليل ، أوى الى تلك الخيمة السوداء التي أصبحت رمزاً كريهاً للنكبة .. وهذه الخيمة صدقة غير كريمة من الدول اللئيمة التي أسهمت في النكبة وتشريد اللاجئين ، وهي ترجو من وراء هذه الصدقة أن تخدّر الشعور العربي وتبلده ، وأن تنسي المصابين هول الكارثة ، والعار كل العار أن تقبل الأمة العربية هذه الصدقة ، وما يتبعها من مَنٍّ وكالة الإغاثة ، وبلاد العرب تسبح فوق

بحر زاخر من الزيت ، وهذا الزيت مال الله ، يملكه الشعب العربي ، وليس لفردٍ — من كان — أن يحتجنه أو يدعي ملكه ! فلنشتر ببعضه بؤس اللاجئين ، ولنمسح به دموع المنكوبين !. « إن زيت الحجاز والعراق والكويت - كما يقول الأستاذ نقولا الحداد - ليس لأهل الحجاز ولا لأهل العراق ولا لأهل الكويت ، انما هو ملك لله ، لأنهم لم يزرعوه حتى يستغلوه ، ولا صنعوه حتى يتاجروا به ، فيجب أن يدفعوا ضريبة ثقيلة عليه لله ! » .

ولكن كيف نأمل أن تُدفع مثل هذه الضريبة ، والجيوب الشحيحة التي تكنز (دولارات) الزيت ، لا يرى أصحابها بؤس اللاجئين ، ولا يدركون هول النكبة ، وهم لو كانوا أدركوا فأحسوا فانتخوا من الدنية لبذلوا وضحوا ، يوم كان قرار التقسيم يُلغيه عود ثقاب ! عود كبريت صغير يحرق آبار الزيت ، وينسف منشآته ، ويدك مصالح المستعمرين ، ويجعلهم يجثون على الركب ، ويطيلون التفكير قبل أن يزرعوا الدمّل الاسرائيلي في قلب العرب .. لقد كان عود الكبريت الذي كنا نملكه آنذاك يغنينا عن السلاح والعتاد الذي لم نكن آنذاك نملكه ، ولكن المتسلطين على الزيت آثروا أن يُعلنوا بلسان ابن السعود عام ١٩٤٧ : « أن فلسطين عزيزة عليه ، وأنها بؤبؤ عينيه ، وأنه لا يرضى لها إلا ما يرضاه لنفسه » ، فلما جدَّ الجد وصاحت فلسطين المستغيثة « وامعتصماه ! » أصمّ أصحاب النخوة

الـكاذبة آذانهم، وضموا جيوبهم على ملايين (الدولارات) من دخل الزيت، ووقفوا يحرسون مرافقه من نقمة الشعب، ليوفّوا بالتزاماتهم!! وأعلنوا في مجلس الجامعة العربية سنة ١٩٤٨ بلسان الشيخ يوسف ياسين « أن اليهود أغنياء وأقوياء وأذكياء ، وان العرب ــ خسئت كلمة تخرج من أفواههم ! ــ لا طاقة لهم بحرب اليهود ، لأنهم فقراء وضعفاء !... » و ... وكان عليه أن يقول : وأغبياء ! ولهذا كله كان لا بد للنكبة من أن تدمر فلسطين ، وأن تنطلق لعنة الأجيال من فم شاعرنا الكبير عمر أبي ريشة ، تصفع قادة العرب وتخاذلهم :

ودعي القادة في أهوائها   تتفانى في خسيس المغنم
ربّ (وامعتصماه) انطلقت   ملء أفواه الصبايا اليُتّم
لامست أسماعهم لكنَّها   لم تلامس نخوة المعتصم

ولهذا كان لا بد لأهل فلسطين من أن يهيموا على وجوههم متشرّدين، بين نازح وطريد ، كما يقول الشاعر محيي الدين الحاج عيسى:

وطنٌ تمزّق قاطنوه وشُرّدوا   فبكل أرضٍ نازحٌ وطريدُ
نزحوا وخلّوا جازعين ديارهم   ولهم هنالك مُطرف وتليد
قد حازها أعداؤهم وتجرّدوا   منها كما يتجرّد العنقود

وضلَّ العربي الشريد في الآفاق ، كما يصوره الشاعر محمود الحوت:

وراح يضرب في الأرض العراء ضُحى
ويقطع اليمَّ مخمورَ المنى وِجفا

فلا يرى في اتساع الكون من عبر
إلا الضنى واختناق الروح والتلفا
أما إذا اربدّ وجهُ الليل يُفزعه
وجدته بالغيوم السود ملتحفا
والجوع ينهش من أكباده قطعاً
وينثني من دماء القلب مرتشفا
تقاذفته بلاد الله يذرعها
مشرّداً ضلّ ، لا نهجاً ولا هدفا

وأصبح الفلسطيني المشرّد يُسأل في كل مكان : « من أين أنت ؟ »
وهذا الشاعر بشير قبطي يُسأل فيجيب :

من أين أنت ؟ وزمجرت كلماته في مسمعيّا .

. . .

أنا من ربا يافا ، من الشط المرصَّع باللآلي

. . .

أنا من تلال الرملة البيضاء ذهّبها الأصيلُ
من سفح غزة ، من ربوع اللدّ ، تحضنها السهول
من روض حيفا ، روض كرملها ، تلذّ به الشمول
من دوح يافا ، من عروس الشرق ، أسكرها الهديلُ
أنا من ضلوع القدس ، شرَّحها بمبضعه الدخيلُ

أنا من معين الثأر ، من ثغر الأعاصير الغضاب
أنا من فلسطين التي انتفضت على قصف الحراب
قد ضلّل الدخلاء شعباً جاهلاً غض الإهاب
فيها فبـــات عرينها ملهى فسيحاً للذئاب
وعلى أيادي الساسة (النجباء) قد فرضوا اغترابي

ويجيب شاعر مشرد آخر ، هو هارون هاشم رشيد :

أنا لاجيء ، وطني استبيح وداسه غدرُ العدى
أنا نازح ، داري هناك وكرمتي والمنتدى
وطني هناك ولن أظلّ بغيره متشرّدا
لي موعد في موطني ، هيهات أنسى الموعدا

ويجيب شاعر مشرد ثالث هو يوسف الخطيب :

أنا لاجيء يا مصر أضرب في الحياة بلا دليلْ
أنا لاجيء يا مصر أمسح في الثرى جرحي الكليل
داري هنالك خلف أسوار الهزيمة والعويل
داري هنالك في الهوان تئن من قدم الدخيل

وعند خيام اللاجئين تلاقى شعراء النكبة، ومن الشقاء الرابض في الخيام السود استعاروا مادتهم الشعرية، واستوحوا أسماءدواوينهم فسمى أبو سلمى ديوانه الأول « مشرّد » وأهداه « إلى أخيه الفلسطيني

المشرَّد تحت كل كوكب » ، ومن وحي جوع سكان الخيام استعار خليل زقطان اسم ديوانه « صوت الجياع » وأهداه إلى المشردين في أنحاء الأرض ، ومن أجل اللاجئين أرسل هارون هاشم رشيد ألحان ديوانه الباكية « مع الغرباء » وأهداه إليهم :

إليهم ، إلى إخوتي اللاجئين إلى إخوتي يوم يدعو الدم
إليهم وإن سكنوا في الكهوف وفوق روابي الأسى خيموا
إليهم سأشدو بشعر الحياة ومنهم بروحي سأستلهم

وقد وفى هذا الشاعر بما وعد ، فأصدر ديوانه الثاني من وحي هؤلاء الغرباء وعزيمتهم وسماه « عودة الغرباء »، كما سمى يوسف الخطيب ديوانه الثاني « عائدون » ، وباسم واحد من هؤلاء الغرباء ، أنشد محمود الحوت « أناشيد عربي من فلسطين ضل في الآفاق » وأسماها « المهزلة العربية »، ومنذ تمثيل هذه المهزلة إلى اليوم يندر أن تخلو مجلة عربية دورية من ترديد صرخة شعرية تشكو إلى كل ضمير بؤس اللاجئين ، وهي تنبعث من كل قطر من أقطار العرب ، كما يندر أن نجد شاعراً عربياً لم يخفق قلبه لآلام اللاجئين وعريهم وجوعهم، فهذا كاظم جواد يرسل من العراق هذا التساؤل الحزين :

أحشرجات الثأر ما أُحس في الخيامْ . . .
أم رَجْعُ موسيقى الجراح يوقظ النيام . .
في ظلمة الملاجىء الدكناء والخيام

وهذا صوت عبد الوهاب البياتي ينطلق من « الملجأ العشرين » ليقص في ألم حزين قصة القلوب الملتاعة التي تنتظر أنباء البريد ، مترقبة طوال الليل ، وقد أنهكها الفراغ واستبدت بها الوحشة :

كفراغ أيام الجنود العائدين من القتالْ
وكوحشة المصدور في ليل السعال
كانت أغانينا ، وكنا هائمين بلا ظلال
مترقبين ، الليلَ ، أنباء البريد :
« الملجأ العشرون :
ما زلنا بخير ، والعيالْ
ــ والقملُ والموتى ــ يخصون الأقارب بالسلام
والذكرياتُ الفجَّة الشوهاء تعبر ، والخيامْ
والريحُ والغدُ والظلامْ
كوجوهنا غِبَّ الرحيلْ :
« أماه ما زلنا بخير » والذئابْ
تعوي وتعوي عبر صحراء السهادْ :
يا إخوتي من أين نبدأ ؟ من هنا ! » ليلُ السعالْ
وبريدنا الباكي المعادْ :
« لا شيء يُذكر ، لم تزل (يافا) وما زال الرفاقْ
تحت الجسورِ ، وفوق أعمدة الضياء

ولم يزلْ دمنا المراقْ
على حوائطها القديمة ، واللصوص
وحقولنا الجرداء يغزوها الجرادْ » ....

. . .

(يافا) نعودُ غداً إليك مع الحصادْ
ومع السنونو والربيع
ومع الرفاق العائدين من المنافي والسجون
ومع الضحى والقبّراتْ
والأمهات !

« الملجأ العشرون :
مازلنا بخيرٍ ، والعيالْ
والإخوة المتشردون
من قبونا النائي يخصون الأقارب بالسلامْ »

ومن الإقليم الشمالي ، تتحدث إحدى الخيام الباكية بلسان الدكتور بديع حقي ، فإذا « الخيمة الباكية » قلب راعش ، رغيب الجراح ، تلطمه العواصف ، وتسفعه الرياح الغاضبة ، فتثير آلامه وتهيج أحزانه ، فيعكف على جراحه ، ويعاود الأنين والبكاء :

« وأبكي أنا ...
ويخفق قلبي لطيفٍ دنا ،

إليَّ هفا ... وانحنى
ليمسح جرحي بنور كئيبْ .
وتهدرُ ، في الليلِ ، ريح غضوبْ ،
وأبكي أنا
لوجه حزينٍ إليَّ رنا ،
ويمتدّ خيط يإبرَه
ويرفو جراحي بأنفاسِ جمرهْ
ولكن ، تجاذب جلدي ، وتسفع خدي ،
عواصف تلعبُ في المنحنى ،
فيرفضّ جُرح ، بصدري ، رغيبْ ،
نديّ ، طريّ ، خضيبْ ،
وأنحب ، وحدي ،
وأندبُ حلو المنى ...
وأبكي أنا .. »

وأمام خيمة باكية أخرى من خيام اللاجئين في الأردن ، يقف الشاعر كمال ناصر ليلتقط لها هذه الصورة الحية : خيمة مذعورة مصلوبة حيرى ، يعوي فيها الفراغ ، ويحف بها الذل والهم والعذاب :

مذعورة ، على رحابِ المكانْ مصلوبة ، منسية في الزمانْ
حيرى على أوهامها في المدى لا حبّ في سمائها ، لا حنانْ

مشدودة في الأرض معصوبة كأنما شُدّت بأيدي الهوان
النارُ في أرجائها أُخمدت وفي زواياها تلاشى الدخان
يعوي بها فراغها طاوياً في مقلتيه الكبر والعنفوان
والهمّ من يأسٍ بها مطرق يحصي عليها في العذاب الثوان

وإذا أقبل الليل ، فغطى بحلكة ظلامه خيام اللاجئين ، وضمت كل لاجئة فراخها تريد النوم ، صرخ محيي الدين فارس من الإقليم الجنوبي :

« لا .. لا تنامي ..
الليلُ أوغل لاتنامي ..
خلف الخيام قطيعُ ذؤبانٍ ظوامي ..
الريحُ أطفأت السراج ، وقهقهت خلف الخيامِ
وفراخُك الزُغب الصغار تراعشت مثلَ الحمامِ
وتكومت فوق الحصير .. تكوّمت مثلَ الحُطام
ناموا على جوع فما عرفوا هنا طيف ابتسام ... »

وعلى الضفة الغربيه من الأردن ، تتناثر خيام اللاجئين ، وأمام واحدة منها تقبع لاجئة حزينة ، مثل تمثال شقي ، لاتشارك الناس مباهج العيد فتناجيها الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان :

وأراك ما بين الخيام قبعتِ تمثالاً شقيا
متهالكاً يطوي وراء هموده ألماً عتيا

أتُرى ذكرتِ مباهج الأعياد في (يافا) الجميلهْ
أهفت بقلبكِ ذكرياتُ العيد أيام الطفوله
إذ أنتِ كالحسون تنطلقين في زهوٍ غريرِ
والعقدة الحمراءُ قد رفّت على الرأسِ النضيرِ
والشعر منسدل على الكتفين محلول الجديله !

وكيف تضحك اللاجئة للعيد ، وتشارك في مباهجه وأفراحه ، والعيد قد ضيع — كما يقول عيسى الناعوري — منذ النكبة معناه :

عيدٌ فلسطيننا إحدى هداياه	أضحى! ولكننا كبرى ضحاياه
لا بهجة تتجلى في مظاهره	أو فرحة تتبدى في ثناياه
وكيف يفرح شعب بات موطنه	نهباً لدى عُصبةٍ من شر أعداه
شعب تشرد ، لاقطر يهش له	ولا أخ يُرتجى في دفع بلواه
قدمات من كانت الأعياد تُبهجهم	وضيع العيد من عامين معناه

ولهذا يُقبل العيد على شعر النكبة لينكأ فيه الجراح واللوعة ، ويزيد في إضرام أحزان المشردين وآلامهم ، فيذكرون به ذلهم وبؤسهم وعُريهم ، كما يقول خليل زقطان :

عيدٌ ولكن ياأُخَيَّهْ	عيدٌ مواكبه شقيهْ
أبصرتُ فيه الكبريا	ءَ تلوح كاسفةً حييهْ
وعلى محياها جرا	ح الذل تجهر بالرزيهْ

أنى اتجهت فصورة الـ آلام واضحة جليه
والشعب يرزح في ظلا ل البؤس في الحلل الزريه
خدعوه إذ قالوا العرو بة لاتنام عن القضيه
وتسابقوا فعلام ؟.. يا تاريخُ قل عني البقيه

وليس عجيباً أن يعكس شعر النكبة إثر الكارثة حزن المشردين وحيرتهم وقلقهم النفسي وحقدهم ونقمتهم اللاهبة ، وأن تتفجر الثورة كالنار من تلك « العيون الظماء للنور » بعد أن ضاع فردوسها وضاع جحيمها ، وأصبحت لاتعرف إيمانها من كفرها ؛ وفي شعر يوسف الخطيب ملامح واضحة لصورة فئة من جيل النكبة ، فئة مثقفة شاعرة لم تحتمل أعصابها عنف الكارثة وأهوالها ، ففقدت إيمانها بكل شيء ، واستبد بقلبها قلق جاحد كافر . يقول يوسف الخطيب يصف اضطراب إيمانه أمام هول المأساة وحيرته وضياعه :

كم تنزت بين الضلوع كلومُهْ والقذى كأسه .. فأين نديمُهْ
ضاع فردوسه وضاع جحيمُهْ

ليس يدري فناءه من وجودهْ ليس يدري انتهاءه من خلوده
ليس يدري إيمانه من جحوده

هكذا ياإله يشقى عبيدُكْ أين وعدُ الأبرار ،أين وعيدُك
أين عدلُ الحياة .. فيمَ وجودُك !

أأصلي ؟ لمن تكون صلاتي لاجيء ، ليس لي هشيمُ حياةِ
ليس لي حفرة تضمُ رُفاتي

وعندما يثوب يوسف الخطيب إلى نفسه يتبرأ من كفره وتفيض من قلبه الجريح الحائر ثورة روح سجينة : تنشد الفكاك من قيود المذلة ، والتحرر والانطلاق من العبودية :

لستُ بالكافر الذي يتجبرْ أنا روح يريد أن يتحرّرْ
أنا بالقيد والمذلة أكفرْ !

لقد فتح الشاعر عينيه بعد الكارثة ، فوجد نفسه « في سوق العبيد » وسياط النخّاس تكوي ضلوعه ، فكيف ينقذ « أناه » ويسترد حريته :

ياأنا ، ياسلعةً هيّنةً للمشترينْ
ياأنا ، ياقدحاً في سهراتِ المُترفين
ياأنا ، ياشمعةً تحرق ليل الكادحين
في ضلوعي أيُ إعصار من الحقد الدفين

تلك آفاقي : دماء وحراب وسجون
وجباه في الدجى تنزف خمرَ الحاكمين

في ضلوعه حقد دفين ، يغلي ويفور ، ويدفعه إلى الثورة ، ويمنحه قوة الجبار ، فيظن أنه قادر على أن يقرّر مصيره بنفسه ،وأن ينتقم لعاره ، ويثأر لكرامته ، فيرسل من أعماق قلبه هذه الصرخة الرائعة التي تتجاوز حدود شاعريته ، ويثب بها الشاعر وثبة يتفوّق بها على نفسه :

أنا مشعل ، أنا مارج جبارُ	لا الريحُ تخمدني ولا الإعصار
سأمدُ في الآفاق ألسنة اللظى	حمراً لها في الخافقين أوارُ
ولأحرقنَّ الليلَ حتى تنجلي	أسداُفه فتوقدي يانار
للميتين دموُعهم وجراحهم	ولجذوتى ساحُ الوغى والثارُ
ولسوف أغسل جبهتي حتي ُترى	مثل الضحى،ويذوب عنها العار
أنا للحياة ولن أظلَّ مشرّداً	أقسمت لاأرضى ولاأختارُ
ومشيئتي قدر على أقدامه	تتمسّح الأيامُ والأقدارُ
لوشئتُ جمّعت النجوم مشاعلاً	ودفقتُ منها الموتَ حين أثارُ
وذروت في القطبين أرياح الردى	فالأرضُ من بعدي لظى ودمارُ
أنا مجرم ، أنا حاقد ، أنا سيء	حتى ُتعاد الى ذويها الدار

ويوسف الخطيب أشعر من غنى النكبة بعقيدة قومية عربية

اشتراكية، وهو الشاعر اللاجىء الذي نراه في ديوانيه (العيون الظماء للنور) و(عائدون) يعيش تجربة النكبة بدمه وأعصابه ..

ولد يوسف الخطيب في قرية من قرى مدينة الخليل عام ١٩٣١ من أسرة فقيرة، وقد بذل له أبوه كلّ ما يستطيع حتى أتم تحصيله الثانوي في مدارس الخليل، وفي عام ١٩٥٠ أمّ يوسف الخطيب دمشق للدراسة في جامعتها، حيث قضى سنوات أربعاً من حياته يدرس الحقوق، ويعمل في الوقت نفسه في الإذاعة والصحافة، ليكسب ما يعينه على العيش والدراسة، حتى إذا فاز بإجازة الحقوق رجع الى الأردن ليعمل محامياً ومذيعاً، فلما حصلت نكسة عام ١٩٥٧ هرب الشاعر، والتجأ الى الاقليم الشمالي، فاحتضنته دار الإذاعة في دمشق، وأصبح صوته الأجش يهدر كل يوم من المذياع، يذكّر اللاجئين الفلسطينيين في كل مكان من العالم العربي أنهم لا بُد (عائدون)، وينفخ في جيل النكبة روح العزيمة والنضال والصبر، ليعرفوا أنهم على موعد مع القدر، ويترقبوا أذان الفجر ليلبوا صيحة الزحف المقدس .

إن يوسف الخطيب شاعر قومي، يؤج كل حرف من شعره بإيمانه الملتهب بعروبته، ولهفته الظامئة الى الثأر :

أما ترانا في الدجى نغتلي ... وموعد الثأر ينادينا
نسعى الى الفجر وما نأتلي ... نمزق الليل بأيدينا
إن كنت لا تعرف من أمتي ... فاسأل عن العرب الميادينا

نـكاد من سَوْرة آلامنا تتخـذ الحقد لنا دينـا !

لقد آمن المشردون جميعاً بالحقد ، فصغارهم يرضعونه مع الحليب ، وهذه «رقيَّة» صورة حيَّة من صور النكبة ، ترسمها الشاعرة فدوى طوقان، لأم فقيرة لاجئة، تعصف في صدورها الأضغان ، ووليدها يتململ في حجرها :

تململ في حضنها فرخها فضمته محمـومةً ثائرهْ
ومالت عليه وفي صدرها مشاعر وحشية هادره
لترضعـه من لظى حقـدها ونار ضغـائنها الفائره
وتسكب من سم خلْجاتها بأعماقه دفقةً زاخره

وليس عجيباً أن يعمر الحقد صدور المنكوبين إثر وقوع الكارثة، وأن يملأ جانباً ضخماً من جوانب شعر النكبة ، ولقد تسرَّب الحقد الى صدر كل عربي ، ولو لم يكن فلسطينياً مشرداً ، ذلك أن (أخوة العار) شملت كل عربي ، وتركت له في فلسطين جرحاً رغيباً ينتظر الثأر ، ولهذا ينطلق صوت محمد بدرالدين من القاهرة :

أنا ياأخي في العار لن أنسى هناك
فأخي الشهيد على الثرى ملقى هناك
والثأر يوماً سـوف يجمعنا هناك
أنا من هنا ... لكن جرحي من هناك

. . .

ستثير أحقادي مرارة ذلتي

وتعيد في ذهني خيال النكبة

هي نكبتي ، فالقدس كانت قبلتي

إن لم اكن منها ففيها أمتي

واللاجئون من الضحايا إخوتي

يوماً سأكتب في ثراها قصتي

بدمي، وأنسف قيدها بعزيمتي

فإذا صُرعت ، أخي فوسّدني هناك

أنا من هنا ... لكن روحي من هناك !..

غير أن مرور الزمن على جراح الكارثة خفف من ثورة القلق والحيرة عند شعراء النكبة ، فخفت صوت الحقد والضغينة في نفوسهم ،وجدَّت عوامل كثيرة أعانت على كبح جماح اليأس في قلوب المنكوبين ،كانفجار الانقلابات الشعبية في كل طرف من أطراف العالم العربي ، ونجاح الثورة المصرية وتصفية الفساد في كبرى الدول العربية ، وتولي القيادات المؤمنة المخلصة أزمة الأمور في كثير من أقطار العرب ، وقيام الوحدة بين القطرين المصري والسوري ، وازدياد الوعي القومي والثوري في أوساط الشعوب

العربية ، وبتقلص ظلال اليأس أشرق التفاؤل في شعر النكبة ، وأشعت من جديد حرارة الإيمان بالشعوب العربية ويقظتها وبعثها ووحدتها ، كما يقول يوسف الخطيب :

غرة البعث أشرقت تسحب النو ... ر على البيد والقرى والحواضرْ
فاعصري يا أكفُّ منها نبيذاً ... واستحمي في ضوئها يا نواظر
نحن في موئل العروبة شعب ... جمعتنا رغم الحدود الأواصر

ومع يقظة الشعب العربي يتفجر جدول الضياء ، وتعلن الأمة العربية إيمانها بنفسها ، وعزيمتها على التحرر ، كما يقول الخطيب نفسه :

هكذا جدول الضياء تفجرْ
هكذا راحت الملايين تزخرْ
وحداء كالرعد : الشعب أكبرْ
إنَّ شعباً يريد أن يتحرّر

ويعلو عند ذلك صوت أبي سلمى يحث الشعب على الثورة وتحطيم جبروت الطغاة :

ثورة الشعب طهّري كل أرض ... واحطمي كل من طغى وتجبَّرْ
فيعيش الإنسان حراً طليقاً ... وينير الطريق شعب تحرر

وتستبد الثقة بالشعب وقوته ببعض شعراء النكبة فيزأر في وجه الطغاة ثائراً مهدداً مغالياً ، كما يفعل خليل زقطان :

فليقرأوا فوق الجبا ... ه الغرِّ فلسفة العصاهْ

صوراً من الإصرار تُعلمنا أنما الشعب الإله

ومما يزيد موجة التفاؤل إشراقاً في شعر النكبة ، اندفاع تلك الثورة العارمة من الحنين إلى أرض الوطن المغصوب ، فبعد أن ذاق اللاجئون التائهون مرارة التشرد والغربة فاض بهم الشوق إلى الوطن والديار ، وهذا محيي الدين عيسى يناجي ربوع جبل الجرمق بعد خمس سنوات من التيه والتغرّب :

حيَّتكِ عني يا رباع الجرمق أزكى النسائم من مشارف جلّق
خمسٌ من السنوات مرت لم تذق عيني الكرى إلا لطيفٍ مؤرق
طيفٌ يجدد كل يوم لوعة ويثير فرط صبابتي وتشوّقي

وهذا أبو سلمى يحن إلى داره في فلسطين ، وإلى دنيا من الذكريات الحلوة التي خلَّفها فيها :

داري التي أغفت على ربوةٍ حالمةٍ بالمجد والغار
تفتّح الزهر على خدها فعطّرت أيام آذار
والتينة الخضراء في ظلها تاريخ أشواقي وآثاري
والعين خلف الدار في المنحنى تروي حكاياتي وأخباري

وهذا عبد الرحمن الكيالي يحن إلى يافا وأمسياتها الحلوة :

ويافا الجميلة بنت المفاتن كيف عن الأهل سُلوانها
أتصبو إلى البحر عند الغروب وتشدو على الماء خلجانها

ويعلو الضجيج بها في الصباح ويلهو مع الليل نشوانها

والحنين الصادق اللوعة حقاً يفور في قلب شاعر النكبة يوسف الخطيب ، فقد كان ذات أصيل على شاطىء بردى حين رأى عندليباً مقبلاً من الجنوب ، مهاجراً مثله من فلسطين ، فيسأله ويناجيه بأرق النجوى :

وأكاد ألمح في وجومك لون مأساتي
جرحي وملحمتي وتشريدي ، وآهاتي ..

بيَ لهفةٌ يا صاحبي مشبوبةُ النارِ
هل بعضُ أخبارٍ تحدثها ، وأسرار
للظامئين على متاه الوحشة العاري
كيف الحقول تركتها في عُرس آذار
ومتى لويتَ جناحكَ الزاهي عن الدار
.. عجباً ، تُراك أتيتنا من غير تذكار !

لو قشةٌ ممَّا يرف ببيدرِ البلدِ
خبّأتها بين الجناحِ وخفقة الكبد
لو رملتان من المثلَّث أو رُبا صفدِ
لو عشبةٌ بيدٍ ، ومزقة سوسنٍ بيدِ !

أين الهدايا مذ برحت مرابعَ الرغد
أم جئت مثلي بالحنين وسورةِ الكمدِ

عهدي بدار طفولتي سحرية الصورِ
مغسولة الربوات في شـلاّلة القمر
أواه كم أمسيّـة عربيَّة السمر
كانت لنا في كل رابية ومنحدرِ
كم سرحةٍ عنـد الأصيل ويقظـة السحر
بسلالنا ، ملء الرُبا ومساربِ الشجر

. . .

ماذا رحيلك أيّها المتشرد الباكي
عن أرض غابات الخيال وفوحها الزاكي!
أم أن مرج الزهر أصبح قفر أشواك
وتلوَّنت أنهارُها بنجيع سفَّاك
. . داري ، وفي عينيَّ والشفتين نجواك
لا كنت نسل عروبتي إن كنتُ أنساكِ

ومن مظاهر التفاؤل في شعر النكبة أن تلتهب في جوانبه الدعوة إلى الثأر ، وأن تغلي فيه عزيمة التصميم على العودة إلى الوطن ، وبعد

أن كنا نسمع من شعراء النكبة أنين اليأس من استعادة الأرض المغصوبة ، وثورتهم على تخاذل الشعب العربي وضعفه وانهياره وهزال وعيه ، أصبحنا نسمع منهم صرخات القوة والإيمان بوعي الشعب ونضاله ، ويمكننا أن نضرب الأمثلة الكثيرة على هذا التطور في شعر النكبة ، فهذا الشاعر عيسى الناعوري كان في ساعات يأسه ينكر وعي الشعب العربي ويتهمه بالخنوع والاستسلام لكل طاغية :

الوعي وعي الشعب كذبٌ فما   في شعبنا وعيٌ وأحرارُ
نمجّد الطاغي ونعنو إذا   ما ساقنا للذلّ سمسارُ

ثم أصبح الشاعر نفسه يطلق صرخة الإيمان بالشعب لخوض معركة الثأر :

يا فلسطين إن للثأر يوماً   سترى الأرضُ هوله والسماءُ
فبنوك الذين قد شرّدتهم   نُوَبُ الظلم ما اعتراهم وناء
سوف يبقى الحقد المقدس فيهم   يتلظّى ولن تقر الدماء

وهذا الشاعر اللاجىء خليل زقطان كان اليأس يدفع به إلى مثل هذا القول :

يا صاحِ لا تحلم بأنك عائدٌ   للربع فالأحلام قد لاتصدق
سنظلُّ ندعى لاجئين كما ترى   ويظل يخدعنا الذي يتشدَّق

ثم غاب اليأس ، وأطل الأمل والإيمان بوعي الشعب في شعره ، كالذي نجده في قوله :

يا أمسنا المخضوب بالدَّم ، بالفواجعِ ، بالدموع
اغرب ، ففجر الوعي عانق نوره أمل الجموعِ
فمشت تُزيل معالم الفوضى وأسباب الخضوع

وهذا الشاعر كمال ناصر ، نجد في ديوانه (جراح تغني) نقمة عارمة على الشعب وجبنه ، إذ لا يجد فيه البطل الفارس الفدائي :

لا بطل يمشي الى حتفه مؤزَّراً ، مغامراً ، مؤمنا
لا فارس تُضرمه غاية ويدعيه في الجهاد السنا
ولا فدائي جريء الخُطا يستعذب الميتة بين القنا
صرختُ في يأسي وفي حرقتي ما أحقر الشعب وما أجبنا !

فإذا انحسرت موجة اليأس والحرقة ، وأشرق التفاؤل ، دوّت صرخة الشاعر نفسه ، تعلن في زهو لا حدَّ له ، إيمانه بالشعب وقوته وكبريائه :

أنا الشعب فلتسمعي يا ذرا نشيدي ، يُدوّي بسمع الفضاءْ
أمدُّ جناحيَّ عبْرَ الجراح فمن كبرياءٍ إلى كبرياء
أنا الشعب يا حفنة المُرجفين نداء الخلود وسرّ البقاء
على مقلتيَّ مصير الوجود وفي وجنتيّ مصير القضاء !

أما الشاعر الذي هزم اليأس فلم يجد إلى قلبه سبيلاً ، فهو شاعر العودة غير مدافع بين شعراء النكبة جميعاً ، أعني هارون هاشم

رشيد ، ذلك أننا نجد في دواوينه الأربعة (مع الغرباء — عودة الغرباء - غزة في خط النار - أرض الثورات) تلك الروح المتوهجة المؤمنة التي لا يعتريها يأس ، ولا يتزعزع إيمانها بكسب الجولة الثانية :

من الكهف والخيمة الباليه   سأجمع للثأر أشلائيه

سأجمع أهلي وأصحابيه   وأصرخ من عمق أعماقيه

وأرسلها صيحة داوية   وأدعو إلى الجولة الثانيه

وعلى الرغم من أن الشاعر عاش مع اللاجئين الغرباء تجارب كاملة في ديوانه الأول ، فرأى بؤسهم وعريهم وجوعهم ، فإنّ روح التفاؤل والنضال لم تمت في شعره :

هذي الخيامُ ألا ترى   ضاقت بمن فيها الخيامُ

لا .. لا يُروّعك السقا   م فلن يحطمها السقام

كلا ولا هذا الشقا   ءُ إذا تفشى والحمامُ

لا لن يضير عقيدةً   من أجلها صلوا وصاموا

وكان الشاعر ينفخ من روحه القوية في قلوب المنكوبين التائهين ليواصلوا السير والكفاح :

ياأخي الضارب في التيه وما كلّت خطاك

أنت تمشي باندفاعٍ والدنى تمشي وراك

فإذا اليأس تراءى حطمته قبضتاك

وإذا الدمعُ تنزّى جففته مقلتاك

يا أخي ، إن تهتَ في الدرب ، فلا تلق عصاك
سر وكافح جاهداً ما اسطعتَ تبلغ مبتغاك
فشاعر العودة مؤمن بالعودة ، على الرغم من كل شيء :

سنعود ياأختاه للوطن رغم الشقاء وقسوة الزمنِ
رغم الليالي العابثات بنا والجوع والتشريد والمحن

وهو يرى يوم العودة قريباً ، ويعلن أن الزحف المقدس على فلسطين لاستردادها موعده غد :

قسماً بهم .. قسماً بمن قد شرّدوا
تحت الخيام الباليات وأبعدوا
قسماً بأقداسٍ لهم تُتهدّد
عيسى بنى أمجادها ومحمدُ
سنكون بركاناً يمور ويُزبد
سنكون حرباً لاتكل لها يدُ
وسنجمع الشمل الكبير ونحشد
وإذا دعا الداعي وحان الموعدُ
ألفيتنا من كل صوب نرفد
كالسيل نهدر بالجهاد ونرعد
الزحف ·· إن الزحف موعده غدُ

في غدٍ ينتشي الكون بوثبة الجيش العربي على فلسطين الشهيدة ،

يقوده بطلٌ كصلاح الدين ، فيستخاص الديار المقدسة ، ويثأر للضحايا والشهداء :

يافلسطين أراهـا وثبةً في غد ترعد بالكون انتشاءَ
وصلاح الدين في فيلقه يرجم البغي انتفاضاً وارتواء
وأرى حطين من فرحتها زحفت تلقاه حُباً ووفاء
وأرى من حولها أُمتنا بذلت في ساحة الثأر الدماء
وسرايانا التقت في موعدٍ مسح الدهر بها ماقد أساء
ولواء النصر معقودٌ لها والمروءات تحيّي الشهداء

أما دعاة السلام الذين يتبجحون بالمثل الانسانية ، ويدعون الى قتل روح الكفاح في الشعب ، ويتناسون دماء فلسطين الذبيحة ، فإن شاعر العودة هارون هاشم رشيد نفسه يدعونا أن نقول لهم :

قولوا لأشباهِ الرجال ولا رجالْ
الهاربين من الجهاد ، الخائفين من القتال
قولوالهم : وضح النهارُ وأشرقت شمس النضال

. . .

قولوا لهم : أين السلامُ الحق أشياعَ السلامْ
والداعرون يمزقون قداسة الأرض الحرامْ
يتمتعون بخيرها .. ونموتُ في ليل الخيام

. . . .

الجولةُ الكبرى غداً .. لا بد منها والكفاح
سنسير للنصر القريب ، ولن يؤخرنا النباحْ

ومن أبرز مظاهر التفاؤل في شعر النكبة عودة الثقة بالنفس العربية ، وتحديها من جديد للدولة المسيخة ، فقد استطاعت مصر الثورة أن تبني للعروبة جيشاً قوياً يقف في وجه مطامع اسرائيل ، وأصبحت الدولة اليهودية إذا رفعت صوتها تتهدد العرب وتتوعدهم ، تلقت من الرئيس جمال عبد الناصر مثل هذا التحدي الساخر : «فلتهجم اسرائيل في الربيع ، ولتهجم اسرائيل في الصيف ، ولتهجم اسرائيل في الخريف ، ولتهجم اسرائيل في الشتاء إن كانت تحب الشتاء!»

ويتلقف شعر النكبة هذا التحدي فيصوغه شعراً ، ويوجهه إنذاراً صاعقاً الى اليهود المعتدين ، بلسان الشاعر سمير صنبر :

الموتُ عبر خطوطنا فليزحفوا
وليهجموا ، وليعتدوا ، وليعرفوا
أن الدماء ، دماءنا ، خلف الحدود
تغلي وتصنع من جديد
تاريخَ شعب يهتف :
فليزحفوا
وليعرفوا

أنّا سنُرجع بالإرادة ، بالحديد
أرضَ الجدود .

. . .

وليصرخوا ،وليكذبوا ،وليهرفوا !
وليعتدوا ، وليقتلوا ، وليختفوا
وليأثموا
وليعلموا
أنا الجدار المستعد الصامد
أنا الصراعُ المستنير الخالدُ
إيماننا الخط المنيع الراصد
أرواحنا الفجر القريب الصاعد
فليفقدوا أعصابهم .. فليفقدوا
وليطلقوا نيرانهم ، وليعتدوا
فالموعدُ
في صدرنا لهبٌ يثور ويُزبد
في أرضنا ظمأ يئن ويحقد
ولنا الغدُ
والجولة الأخرى وركبُ الصامدين
ودبيب أقدام المشاة الظافرين

وهتاف آلاف الضحايا النازحين
القدس ،حيفا ، دربنا ، فليعرفوا
الموت عبر خطوطنا فليزحفوا ..

وزحف اليهود بحماية الاستعمار على مصر ، بعد ثماني سنوات من التقسيم ، ووقفت غزة في خط النار صامدة كما صمدت بورسعيد،وعندما دخلها اليهود رأوا فيها شعباً جديداً ،يختاف كل الاختلاف عن الشعب الذي عرفوه قبل سنوات ... فقد قابلهم في غزة جيل عربي جديد ، يعمر قلبه الإيمان والشوق الى الشهادة ، لايرهب القنابل ، ولا يُخلي دوره وربوعه للغزاة ، وكذلك بقي الشاعر هارون هاشم رشيد في بلده غزة خلال الاحتلال ، طوال شهرين ، فلما اضطره العسف الصهيوني الى مغادرة غزة ، لم يطق قلبه وداع بلده الحبيب :

أوداعاً ؟ فيمَ ياغزةُ بالله الوداعُ
وأنا منكِ تراب وشعور والتماعُ
أنا إن ودّعت مغناك تلقّاني الضياع
وتلقّتني ذئاب جائعات وضباع
أوداعاً ..لا وحقِ الثأر ،لاكان الوداع

وعندما انسحب المعتدون يجرّرون أذيال الخيبة ، عاد الشاعر إلى غزة ليشيّعهم متحدياً :

مازلت لهيباً مشتعلاً يدعو للحرب وللثار

ولقد كان الاعتداء الثلاثي أبلغ درس في معركة النكبة، لإسرائيل والعرب معاً : فأما اسرائيل فقد أيقنت بعد الاعتداء أن الأمة العربية قد ولدت من جديد ، وفي يد كل فرد منها سلاحه ، يتحدّى كل مغتصب معتد ، بلسان الشاعر صلاح الدين عبد الصبور :

سأقتلكْ
من قبل أن تقتلني سأقتلك
من قبل أن تغوص في دمي
أغوص في دمك
وليس بيننا سوى السلاح
وليحكم السلاح بيننا !

وأما العرب فقد لفتهم النصر الى قيمة اتحادهم، فصاغ جمال عبد الناصر وشكري القوتلي معاً أروع قصائد النكبة بميلاد الجمهورية العربية المتحدة ، وهي أول قصيدة في نشيد الوحدة العربية الكبرى .

لقد كانت نكبة العرب في فلسطين هزّة عنيفة عصفت بكيانهم من جذوره ، وأيقظتهم من نومهم بأهوالها ومآسيها ، ولم تمض عشر سنوات على تقسيم فلسطين حتى أصبحت الوحدة العربية حقيقة واقعة بعد أن كانت حلماً بعيداً ، وبدت طلائعها بقيام الجمهورية العربية المتحدة وأيقن العرب أن النكبة ستكون الحافز العميق ليقظتهم وبعثهم .

أما شعراء النكبة فلم يغفلوا عن رصد أثرها في توحيد الأمة العربية ، فهذا أبو سلمى يناجي فلسطين بقصيدة يسميها « بعد عشر سنين » يحدّد فيها دور النكبة في الوحدة ، ويقرّر أن الوحدة العربية الكبرى لا تتم إلا بتحرير فلسطين من مغتصبيها :

يافلسطين مضت عشر وفي كلِّ يوم يسمع الدهر ندانا
وأتينا واللظى يحرقنا عرباً : قلباً ووجهاً ولسانا
يا أحبائي مضت عشر ولم تلثم التُرب المفدَّى شفتانا
وشظايانا اللواتي وحّدت بين أهلينا ولم يبق سوانا
لن تتم الوحدة الكبرى إذا لم يلح في الوحدة الكبرى حمانا

وإلى اليوم ، وبعد مضي اثنتي عشرة سنة على اغتصاب الأرض المقدسة ، لايزال شعر النكبة يوالي إنشاد أغانيه ، ينفخ بها في جيل النكبة روح النضال والكفاح والثأر ، في انتظار يوم المعركة الحاسمة ، ويعلن للعالم أن العرب لاينسون دماء فلسطين مهما يطل ليل المحنة ، وأن النكبة لاتزيدهم إلا قوة وعزيمة وإصراراً ، كما يقول أبو سلمى :

كيف ننسى وعلى كل ثرى دمنا يسري سعيراً والتهابا
نحن في النكبة أصفى جوهراً كلما اشتد لهيب النار طابا

* *

الفصل الخامس

خصائص شعر النكبة

قدّمنا في الفصول السابقة خلاصة الحقائق التاريخية للنكبة الفلسطينية في دوريها ، منذ أن أعلن وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، الى عامنا الحاضر ١٩٦٠ ، بعد مضي اثنتي عشرة سنة على تقسيم فلسطين ؛ وعرضنا مشاهد مختارة متسلسلة من الشعر العربي المعاصر الذي يحكي أحداث النكبة ويعكس أصداءها ، ولقد حاولنا في هذا العرض الشعري ألا نطيل الطريق ، وأن نضمن — مااستطعنا — للمشاهد ترابطاً ينجيها من التفكك ، وحركة متتابعة تعين على ملاحظة مراحل شعر النكبة ورصد تطوره ، ولهذا كان علينا أن نوجز ، وأن نكتفي عند كل مشهد بإيراد حفنة مختارة من الشعر ، راجين أن يغني القليل عن الكثير ،

وأن ينوب عنه في تمثيل الأحداث وتصويرها ، وأن يشف عن أهم الخصائص الفنية التي يمتاز بها شعر النكبة .

ولقد آثرنا أيضاً أن نجمع الدراسة الأدبية لشعر النكبة في فصل خاص بها، على أن ننثرها نتفاً في تضاعيف المشاهد الشعرية المعروضة قبلاً ، ولنا من وراء ذلك غاية فنية وهي حماية العرض الشعري من تراخي الحركة وضعفها وتفككها ، وغاية تعليمية وهي إبراز خصائص شعر النكبة وتحديدها وتكثيفها وإعانة الدارسين على تلمسها وحصرها .

– ١ –

هزت النكبة ضمائر الشعراء العرب في كل قطر ، فقالوا الشعر في غنائها ، فدلل شعر النكبة بذلك على أن محنة فلسطين ليست كارثة محلية ضيقة ، بل هي نكبة قومية جامعة ، أيقظت بأهوالها ومآسيها أمة العرب ، في كل قطر من أقطارهم ، وأظهرتهم على أن اغتصاب هذا الجزء المقدّس من كيانهم الأرضي الموروث مقدمة تكشف عن أطماع للصهيونية والاستعمار في وطنهم لانهاية لها ، فضلاً عن كرامتهم التي ديست ، والدماء العربية التي هدرت ، ولهذا ارتعش وجدان كل عربي مؤمن بعروبته ، وتفجر الشعر الحزين من قلب كل شاعر

عربي ، يبكي ضياع فلسطين و نكبة الأمة العربية فيها ، ومن النادر أن يخلو ديوان شاعر عربي معاصر من صفحات تعكس أصداء النكبة وتروي شيئاً من أحداثها ، غير أن الشعراء من أبناء فلسطين هم الذين غنوا أصدق ألحان النكبة وأعمقها وجداناً وعاطفة ، لأنهم صدروا فيها عن واقع وطنهم ، وحكوا عن التجارب التي عاشوها بأنفسهم ، والمآسي التي رأوها بأعينهم ، وماراء كمن سمع ، ولا منكوب كمُواس ، ولقد برّز منهم ابراهيم طوقان في الدور الأول ، ويوسف الخطيب وأبو سلمى وهارون هاشم رشيد في الدور الثاني ، فكانوا في الطليعة :

فأما ابراهيم طوقان فقد كان يغني النكبة بألحان كئيبة متشائمة ، ترضع من نفس حزينة ، وجسم مريض معلول ؛ وأما يوسف الخطيب فإن ألحانه عصارة قلب متمرد ، عاش تجربة النكبة بكل دفقة من دمائه ، وكل رجفة من أعصابه ؛ وأما أبو سلمى فان أغانيه الرائعة تعاصر النكبة في دوريها ، وتفيض مرارة وحقداً على (مجرمي النكبة) من الملوك والقادة ، وتقطر حنيناً وشوقاً الى الوطن المغصوب ؛ وأما هارون هاشم رشيد فإنه شاعر الأمل والعودة ، وفي شعره زاد وجداني حماسي يلهب جيل النكبة ، ويمنحه القوة والعزيمة والتفاؤل والاستعداد للجولة الثانية ؛ وفي شعر كل واحد من هؤلاء نفَس سام ، وعاطفة صادقة متوهجة ، وطبع مصقول ، وموسيقى عذبة متموجة ، ونزوع واع الى التجديد .

— ٢ —

نرى في شعر النكبة صورة واضحة المعالم لمختلف التيارات الاجتماعية التي تعصف بالأمة العربية وهي تتلمّس طريقها نحو اليقظة والنور والحرية ، من اليسارية فالاشتراكية إلى القومية فاليمينية : ففي الدور الأول من النكبة يطالعنا تمثيل كامل لهذه الاتجاهات كلها في شعر أبي سلمى وعبد الرحيم محمود وابراهيم طوقان وبرهان الدين العبوشي ، أما في الدور الثاني من النكبة فقد ازداد بعض هذه الاتجاهات تبلوراً وإشعاعاً بسبب من ازدهار الدعوات التي تمثلها في العالم العربي ، كالتيار القومي الاشتراكي ، وخفت صوت بعضها ، كالتيار اليميني ، ومردّ ذلك إلى أن العرب رأوا ـ في دفاعهم عن كيانهم الأرضي الموروث وعن عروبة قطعة منه ـ أن يقودوا المعركة في فلسطين على أساس قومي ، لا على أساس ديني ، وكان موقف بعض الدول الاسلامية من المعركة غير محمود ، فقد ضُلّلت شعوبها المسامة فلم تع وعياً كافياً بأن معركة العروبة في فلسطين هي ـ إلى ذلك ـ معركة المسجد الأقصى والصخرة المقدسة !

ولهذا بقي العرب وحدهم في الميدان ، يخوضون معركتهم القومية الكبرى ، وتقلّص ظل الاتجاه الاسلامي وانزوى على استحياء إذ

لم يجد في الدور الثاني ما يعينه على موالاة ألحانه[1] ..

غير أن أصفى ألحان النكبة ـ في رأيي ـ وأكثرها انسجاماً مع طبيعة الكارثة ، وأغناها فائدةومردوداً ، ما كان منها صادراً عن إيمان قومي واعٍ ، مدركٍ لقيمة الطاقة الاسلامية ودورها في دعم النضال العربي الموحد ، متفتحٍ للإنسانية كلها ، متجاوبٍ معها في سبيل إثارة الضمير العالمي ... ومثل هذه الألحان الصافية قليل في شعر النكبة ، نجد أصداء مبعثرة لها في شعر هارون هاشم رشيد ؛ وليس من ريب في أن مثل هذه الألحان تلتقي على غنائها القلوب المؤمنة كلها ، فتثير في النفس العربية تطلعاً متفائلاً إلى المستقبل في قوة وعزيمة وإصرار ، وينطلق العمل للثأر في اتجاه موحّد هادف مؤمن بنّاء .

— ٣ —

وفي شعر النكبة نجد أيضاً صورة للمخاض النفسي العنيف الذي عاناه العرب في مختلف أطوار النكبة .

في الدور الأول من النكبة كان شعراؤه ـ على الرغم من تعدّد

---

(١) ـ من الانصاف أن نذكر هنا تلك السرية من المتطوعين اليوغوسلافيين المسلمين الذين أسهموا في معارك يافا (النكبة لعارف العارف : ج ١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٧) وإن لم يكن لها أثر كبير في طوفان النكبة العارم .

اتجاهاتهم واختلافها - يتلاقون جميعاً عند الدعوة إلى تنبيه الغافلين : وضمّ الجهود المبعثرة ، وسلوكِ سبل القوة والثورة ، والكفرِ بالزعامات الزائفة المستغلة ، وتمجيد الفدائيين والشهداء ؛ ثم جاء الدور الثاني فكان شعر النكبة في أوله يموج بالقلق والحيرة والشك ، وهو بذلك كله صورة صادقة للنفس العربية الجريحة الكبرياء في أعقاب المعركة ، عندما صدمتها الهزيمة فأذهلتها وغمرتها في ظلمة قاتمة من الغضب واليأس والانهيار ، ثم فجّرت منها براكين الحقد على كل من له يد في الجريمة العظمى ، من الحكام والملوك والساسة العرب إلى اسرائيل والصهيونية والاستعمار وأذنابه ..

ثم استيقظت النفس العربية وقد صهرت الهزيمة معالمها بكآبة طاغية قاتمة ، يزيد بؤس اللاجئين المشرّدين في قُتمتها !

ثم أشرق على شعر النكبة في دوره الثاني طور جديد ، تنسّم الشعراء فيه روح التطلع والأمل والتفاؤل ، فأظهرهم على أن الشعوب العربية لم تُهزم ، بل هُزمت حكوماتها الخائنة المتآمرة ؛ وازدادت إشراقة الأمل إثر الانفجارات الشعبية في كل عاصمة من عواصم العالم العربي ، وفي كل طرف من أطرافه ، وبذلك عادت للنفس العربية ثقتها بذاتها ، وبدأت سلسلة من الانتصارات العربية تتوالى ، بفضل قيادات شعبية واعية ، صنعتها النكبة ونفخت فيها روح العزيمة والجهاد ، فإذا النفس العربية تولد من جديد ، مدركة ذاتها ، تتحدى كل معتد أو

مغتصب ، وباتت - بعد أن نزعت من صدرها أغلال القلق والحيرة والشك - تنتظر في شوق وثبات وإيمان موعد الزحف المقدّس ، لتحقيق الوحدة الكبرى وكسب الجولة الثانية .

- ٤ -

استطاع شعر النكبة - وهو يستوحي مآسيها وأهوالها - أن يُغني العنصر العاطفي والحماسي فيه ، ووفّق في تمثيل الجانب الحزين والمتمرد ، فأبكى العيون بما صوّر من بؤس اللاجئين وشقائهم وجوعهم وعُريهم وهم يقاسون الأهوال السود في الكهوف والخيام ، وهزّ القلوب بما نقل من مشاهد حماسة المشرّدين للتعبئة وحنينهم إلى العودة وشوقهم إلى الثأر ، إلاّ أنّ شعر النكبة لم يكد يُعنى بغير هذا العنصر الانفعالي الوجداني ، فظل العنصر الفكري فيه فقيراً ، ذلك أننا لا نجد في شعر النكبة ما يُعين على تزويد الضمير العربي بالسند الجدلي لحق الأمة العربية في فلسطين وبطلان مزاعم الصهيونية وادعاءاتها ؛ ثم إن شعراء النكبة لم يستطيعوا أن يعكسوا المعنى الايجابي للمأساة القومية الكبرى ، المعنى البنّاء الذي يحدّد الهدف ويرسم الطريق ، فهم جميعاً دعوا في شعرهم إلى الجولة الثانية ، دون وعي أو دراسة ، فإسرائيل ليست غزوة حربية ابتلى بها العالم العربي ، كالغزوات الصليبية الماضية ،

بل هي غزوة حضارية مركّزة ، تتسلّح بالعلم والغنى والقوة ،فهي خطر داهم دائم ، مادمنا جاهلين فقراء ضعفاء ،ولو أننا استطعنا أن نكسب الحرب وأن نقضي على الدولة المسيخة ، وبقينا من بعدُ دويلات مفككة منحطة متعادية متنابذة ، وشعوباً ممزقة جاهلة متأخرة ، لتفرّق اليهود في البلاد العربية ، غانمين آمنين ، واستعمروها كلها بتفوقهم الحضاري والاقتصادي ! يجب أن يدرك شعراء النكبة أن الجولة الثانية وهم لا فائدة منه ، إذا لم تسبقها إقامة الدولة العربية المتحدة التي تجمع العرب ، وتقضي على عوامل التجزئة والتفرقة والتفكك والتخاذل ، وتتسلّح بالعلم والمعرفة ، وتستثمر ثروات الأرض العربية الغنية ، وتأخذ بكل أسباب القوة ؛ وبقيام هذه الدولة العربية الموحدة ، وبناء مواطنيها هذا البناء القوي الراسخ ، يتم القضاء على اسرائيل ، من قبل أن تبدأ الجولة الثانية .

إن إقامة الدولة العربية الموحدة في العالم العربي لا تتم إلا بالقضاء على الاستعمار وأذنابه فيه أولاً ، والاستعمار هو خالق اسرائيل وحاميها ، وبطرده من العالم العربي وتصفية أعوانه ينكشف ظهر اسرائيل ويقترب يومها الموعود ! وقد أدرك شعراء النكبة هذه الحقيقة فتلاقوا جميعاً على مهاجمة الاستعمار وتحميل المستعمرين مسئولية النكبة ، ودعوا الشعوب العربية في كل قطر عربي إلى الثورة على الاستعمار وطرده من العالم العربي والقضاء على زبانيته وأعوانه .

- ٥ -

أهمل شعر النكبة قيمة العنصر الأخلاقي عند دعوته الشعور العربي إلى القوة والتعبئة لمواجهة النكبة، وليس ريب في أن من الصعب على شعر النكبة أن يؤدي مهمته في تعميق الشعور بالخطر لدى الجماهير العربية إذا كان دعاة الانحلال ينفثون فيها سمومهم الجنسية دون وازع أو رقيب، ويسكبون في أعصاب الشباب العربي نار الشهوة، بقصائدهم المفضوحة العارية، ومن أين للشباب العربي - وهو يخوض مع أمته معركة البقاء أو الفناء - أن يتجلّد ويتماسك ويستعد ليوم الزحف، إذا كان أدب التميّع والشهوة يستأثر برأسه، ويستثير غرائزه ويهيج بهيميته، ويدفع به كالمجنون وراء كل أنثى يتخيّلها «نبيذيّة الفم، جائعة الشفتين، زيتية العينين، طائشة الضفائر، مشنجة العروق، سعيرية النهدين، ملتهبة المفاصل إلخ ...»

إنّ في إقبال الطبقة القارئة في العالم العربي على دواوين هؤلاء الشعراء، ورواج شعرهم في أوساط الشباب العربي، دليلاً على انتشار الوهن الخلقي وضمور الإحساس بالخطر الجاثم على الحدود؛ وعلى شعر النكبة أن يتنبَّه لهذا الداء ويكافحه، وأن يتبنّى الدعوة إلى التعبئة الأخلاقية، لخلق جيل عربي مؤمن ينفر من الانحلال والتميّع، ويحسن

المقاومة والصمود في وجه المغريات ، ويقدر على خوض المعركة القادمة وانتزاع النصر .

- ٦ -

ويضعنا البحث في خصائص شعر النكبة أمام مشكلة الشعر العربي المعاصر كله ، وجهاً لوجه ، من حيث الموضوع (الفكرة الشعرية الملتزمة) ومن حيث الصياغة (الشعر الحر) وبذلك نصل إلى أهم أثر للنكبة في أدبنا المعاصر ، شعره ونثره .

أما الدعوة إلى الالتزام فإن النكبة أكبر عامل في إثارتها ، ذلك أن النكبة قدَّمت لشعرائها مادة واقعية غنية ، وشغلت بمآسيها وويلاتها وأهوالها الضمير العربي ، فانطلقت الصرخة من أعماقه ، داعية إلى مطاوعة الأدب الحديث لواقع الأمة العربية المرير ، ليعيش الأدب تجربة الأمة ، ويكون هادفاً صادقاً حياً ، ويكون الأديب صاحب رسالة ، يستقي منها ، ليملأ مضمونه الشعري أو النثري منها ، لا من ذاكرته ومحفوظاته ، ولا من خياله ، فيربط بذلك بين انتاجه والحياة الاجتماعية التي يحياها .

لقد أثيرت الدعوة إلى الالتزام في أعقاب الهزيمة ، وشغلت - وما تزال تشغل - الأوساط الفكرية في العالم العربي ، وانقسم النقاد

إلى فريقين : مؤيد ومعارض .

فهناك فريق يؤمن بالالتزام ، ويحث الكتاب والشعراء على اقتراض مادتهم من الموضوعات العربية « الصميمية » والواقع العربي الحاضر ، ويدعوهم أن يلتزموا في معالجتها برأي محدّد في شجاعة وإصرار ، وأن يكون كل واحد منهم رائداً وقائداً نحو أهداف الأمة العربية الكبرى ومثلها الانسانية العليا [1].

وهناك فريق آخر ، يسخر من الدعوة إلى الالتزام ، ويرى أنها دعوة إلى أن ينقلب الأديب داعية سياسياً أو فيلسوفاً منهجياً ، يردد كالببغاء ألحاناً « جاهزة » موضوعة ، وبذلك تضيع حرية الأديب ، وتُحد آفاقه ، وتُطمس شخصيته ، ويفقد الأدب التنوع والانطلاق.

---

(١) ـ يجب أن نشير هنا الى دراسة للناقد الكبير الدكتور محمد مندور لخّص فيها نظرته التحليلية الثاقبة الى حركة تطور الشعر الحديث مرتبطاً بالعقلية العامة للشعب العربي ، فهو يرى أن الدعوة الى الالتزام في الشعر المعاصر رد فعل الدعوة إلى الشعر الوجداني التي أثارها العقاد والمازني وعبدالرحمن شكري وشعراء المهجر في اول القرن العشرين ، والتي كانت بدورها رد فعل للنهج التقليدي الذي لزمته حركة بعث الشعر الحديث على يد البارودي وشوقي وحافظ (انظر : قضايا جديدة في أدبنا الحديث : ص ٧٧ ٨١) . ونحن في كشفنا عن الصلة الوشيجة بين الدعوة الى الالتزام والنكبة لا نناقض نظرة الدكتور مندور ؛ بل نزيدها دعماً وايضاحاً ، فالعقلية العامة للشعب العربي عندما دعت الى الالتزام وثارت على الوجدانية الذاتية كانت مدفوعة ـ في رأينا ـ بعامل جديد رهيب هو النكبة .

وفي اعتقادنا أن التجربة القاسية التي تعيشها أمتنا العربية منذ الكارثة تدعو الأدباء العرب إلى الهبوط من أبراجهم العاجية، ليعيشوا على الأرض، ويسهموا في تعبئة الفكر والوجدان الشعبي العربي، ويساعدوا على نشر الوعي وتكامله، ويمهدوا الطريق إلى وحدة الأمة وخوض معركتها الفاصلة القادمة، وإن طبيعة المرحلة العصيبة التي تجتازها الأمة العربية تنكر على الشعراء الوجدانيين انعزالهم عن المجتمع وانطواءهم على أنفسهم، وتعيب عليهم أنانيتهم في قصر تفكيرهم على ذواتهم وتسخيرهم الشعر للتعبير عنها، وتنعى عليهم هربهم من مسئوليتهم في علاج مشاكل مجتمعهم ورسم الطريق وتحديد الهدف أمام شعبهم! وهكذا تكون الدعوة إلى الفكرة الشعرية الملتزمة دعوة إلى خلق أدب هادف يلعب دوراً قيادياً في معركتنا الكبرى.

- ٧ -

وأما قضية «الشعر الحر» أو «الشعر الجديد» فهي ثورة جامحة على التقاليد الشعرية العربية في الشكل والمضمون، ومحاولة لوضع تقاليد جديدة للشعر العربي.

يقوم الشعر الحر على وحدة التفعيلة في القصيدة، وتنويع عدد التفعيلات في كل بيت تنويعاً يوافق انسياب المعاني، وتوزيعِ الموجات العاطفية

توزيعا موسيقياً ملائماً ، واعتبار القافية عنصراً عفوياً غير ملتزم ولا متعمد ، وبهذه الصياغة الجديدة للشعر تتحطم وحدة البيت ويضيع استقلاله ، وتُحفظ للقصيدة وحدتها «العضوية» بتماسك أبياتها وترابطها، ويتم عند ذلك تحرّر الشاعر العربي من الأوزان التقليدية وقيودها العاتية ، ومن تحكم القافية الواحدة وطغيانها ، ويكون في وسعه أن ينظم الشعر في قوالب لا حصر لها ، وأن يصوغه صياغة حية متحركة .

ولا يكتفي الشعر الجديد بهذه الحرية الفنية في الصياغة ، ذلك أن دعاته يرون في الشعر العربي الكلاسيكي عيوباً في المضمون يجب أن يتخلص الشعر الحر منها ، فالشعر القديم عندهم شعر إيجاز وتلخيص واكتفاء بـ« اللمحة الدالة » ، وهو لذلك يضيّق دائرة التجربة ، ويجرّدها من أشخاصها ، ويعبر عنها تعبيراً مكثفاً «محنّطاً » ـ كما يقول الشاعر المجدّد صلاح الدين عبد الصبور ـ ، وهو شعر « تعقيلي » يسبغ على التجربة وقار العقل ويسلبها أروع ما فيها ، وهو انفعاليتها وواقعيتها ... ولهذا فالشعر الجديد عليه أن يمدّد التجربة ويبسّطها ويُعنى بإيراد الجزئيات الصغيرة التي تتلاقى ظلالها لتزيد التعبير الشعري عن التجربة عمقاً ووضوحاً وأصالة ؛ وعلى الشعر الجديد أن يكون صادقاً في تمثيل الجانب الانفعالي من الحياة ، وأن يعبّر عن وقع الوجود وأحداثه على الوجدان دونما طلاء أو زيف !

إن الشعر الجديد إذاً هو انقلاب ثوري على الأوضاع الشعرية

التقليدية ، فليس عجيباً أن يهتم النقاد بدراسته ورصد أسبابه ، وقد انتهى بعضهم إلى أنه امتداد للرعشة العنيفة التي طرأت على المفاهيم وتناولت كل وجوه الحياة الانسانية . يقول الدكتور أمجد الطرابلسي : « يجب ألاّ ننسى أن هذا الانقلاب الثوري الذي أرعش معبد الشعر وعصف بهدوئه في هذه السنين الأخيرة ، لم يكن قاصراً على الشعر العربي ، وإنما هي رعشة عنيفة انسابت في كيان الشعر العالمي كله ، ولم يكن للشعر العربي بد من أن ينجرف في هذا التيار طوعاً أو كرهاً ، لأن سرعة العدوى هي الميزة التي تميز زمننا هذا الذي نعيش فيه ، فلقد محيت الحدود نهائياً أمام الإشعاع الفكري ، وإن الفكر اليوم ــ أكثر منه في كل زمن مضى ــ لا يمكن أن يكون ضيقاً ومحلياً ..[1] »

ولا ريب أن وراء الانقلاب دوافع أخرى أيضاً ، وهي دوافع كثيرة ومعقدة ، منها حقد بعض النفوس على التقاليد العربية ــ أيةً كانت ــ واندفاعها الضاري وراء تحطيم كل عقيدة ، فهذه شعوبية خبيثة ماكرة تتستر برداء التجديد وتتقنّع بدعوى التحرر والانطلاق ! ومنها غرور بعض الناشئين من الشعراء ، يعجزهم إقامة الوزن وإخضاع القافية ، فيختصرون الطريق ، ويتمرّدون على القيود ، ويأتون بهراء

(١) ــ انظر مقالة الدكتور الطرابلسي (خواطر في شعرنا المعاصر) في مجلة الثقافة الدمشقية : السنة الاولى ، العدد الثالث تموز ١٩٥٨ .

لاطائل منه ، ويسترون ضعفهم وهزيمتهم وراء دعوى عريضة من التجديدوالتهجم على (عبيدالتقاليد)من الشعراء المطبوعين! ومثل هؤلاء الشباب المغرورين هم بحاجة إلى عصا ناقد صارم يغار على قداسة الفن ليصد هؤلاء المستهترين عن تدنيس هيكله ، ويُعلمهم أن الأدبُ عسر لا يُسر ، وأن وراء كل أثر فني موهبة صامتة عاملة وتضحية لاحدلها من سهر وعرق ودمع وصبر !

غير أن أهم دافع – في اعتقادنا – لهذا الانقلاب الثوري ينبع من النكبة . ذلك أن الهزيمة في فلسطين كانت صدمة عنيفة ، طاش في أعقابها العقل العربي ، فاختلَّت موازين القيم أمام عينيه ، وتفجرت في في اللاشعور نقمة مسعورة تستهين بكل القيم وتتحداها ، فالثورة على التقاليد الشعرية صورة للقلق النفسي والشك والحيرة والرغبة في التغيير والاندفاع نحو التحرر ، والاشمئزاز من الماضي والحاضر .. صورة للهزة الرهيبة التي كادت تحطم الضمير العربي في أعقاب الهزيمة ..

وانقسم النقاد أمام هذا الانقلاب فئتين أيضاً : فئة متشائمة ترى فيه اندفاعاً (لاواعياً) واستهتاراً مراهقاً مغروراً ، وتساهلاً رخواً عاجزاً عن توفير القداسة للفن ،وأكثر هؤلاء النقاد المتشائمين – وعلى رأسهم الأستاذ عباس محمود العقاد – يرفضون أن يسموا الشعر الجديد شعراً ! وفئة أخرى متفائلة ، فهي لاتتوجس ولاتتخوف من هذا الإنقلاب ، وهي ترى في الشعر الجديد محاولة تطورية ، ونزوعاً إلى

التجديد والحياة ، وفي مقدمة هؤلاء المتفائلين الدكتور محمد مندور الذي يدعو الناقمين على الشعر الجديد أن يبذلوا محاولات مخلصة لفهمه واستنباط مواطن الجمال فيه .

وفي اعتقادنا أن الشعر الجديد تجربة لا ضير منها ، فلا هي - وقد رأينا في الفصول السابقة من الكتاب نماذج ناجحة منها ، وسنرى في الفصل الأخير نماذج أخرى - « بهذيان المحمومين » كما يسميها الشاعر المحافظ عزيز أباظة ، ولا هي أيضاً «بالثورة التي تجعل من عصرنا عصراً شعرياً ذهبياً » ، كما يقول الشاعر المجدّد صلاح الدين عبد الصبور ؛ وليس من ريب في أن هذه التجربة إذا قادها الوعي الفني والقومي والإنساني بعمق وموهبة وأصالة ، كان لها مستقبل في صياغة الفكرة الشعرية صياغة جديدة حية متحركة ، وفي تطوير الشعر العربي الحديث كله .

— ٨ —

وخاتمة القول أن شعر النكبة هو لباب الشعر العربي المعاصر وجوهره ، وأنّ في دراسته ورصد تياراته وتقويم خصائصه دراسةً ورصداً وتقويماً للاتجاه الرئيسي الفعال في الأدب المعاصر كله .

إذا كانت كارثة فلسطين القومية الكبرى نكبة للأمة العربية ،

وتجربةهزت أعماقها، وأظهرتهاعلى أنهافي حاجةالى تطوير أوضاعها وتغيير أساليب تفكيرها وعملها وحياتها، فإنها نقمة ونعمةفي آنٍ معاً! ذلك أن إيقاظ أمة غافلة من نومها السحيق العميق ولفتها إلى ضرورةالبناء الجاهد الدائب لإزالة معالم النكبة، نعمة أية نعمة!

ولكن النكبة هي دون ريب نعمة خالصة على الأدب العربي المعاصر، والشعرمنهبخاصة، فقد قدمت لهغذاء دسماً ومادة لا تنفد، ودفعته في طريق التطور والتجديد والحياة!

إن الجيل العربي الذي عاش ليل النكبة، واستيقظ على فجائعها وأهوالها السود، لايزال يرقب ميلادالفجر، وإنه لقريب، وقد لاحت بشائره، وعلى شعراء النكبة أن يتابعوا إنشاد أقوى الألحان وأصفاها، وأن يزيدوا في تعميق الوعي القوميِ الإنساني المؤمن الخّير؛ وأن يضخّموا منابع الأمل والتفاؤل والثقة بالنفس العربية، وأن يدفعوا الطاقة العربية إلى إدراك ذاتها، والإيمان بماضيهاومستقبلها وأن يهيئوها ويعدوها للقيام بدورها المنتظر في تطوير حاضرها، بخوض معركة الوحدة والثأر والتحرير.



الفصل السادس

منتخبات من ديوان النكبة

ديوان النكبة هو هذه المجموعة الضخمة من الشعر الذي صاغته النكبة بلسان عدد كبير من الشعراء ، وهو شعر يكاد يستعصي على الجمع والحصر ، ذلك أنه منشور في تضاعيف دواوين الشعراء المعاصرين للنكبة ، ومبعثر في بطون الكتب والمجلات والصحف ؛ ولمّا لم يكن من السهل على كل يد أن تصل إليه أو إلى الكثير منه ، آثرت ان أورد منه في هذا الفصل الأخير من الكتاب مختارات متنوعة ، تعين القاريء على توثيق صلته بشعر النكبة وتعميق فهمه وإدراكه لخصائصه الفنية ، وكل رجائي أن تزيد هذه المنتخبات دراستي التخطيطية المجملة لشعر النكبة إيضاحاً وأن

تساعد على إبراز الأثر الكبير الذي تركته نكبة فلسطين في الشعر العربي المعاصر .

— ١ —

كان لثورة فلسطين عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ في الدور الأول من النكبة صدى لاهب في كل قطر من أقطار العرب ، ودوّى صوت الشعر يحكي آلام النفس العربية وأشجانها ، ومن لبنان كان صوت الشاعر المسيحي الكبير بشارة الخوري يهز الضمائر ، ويمجّد شهداء الثورة ومنكوبيها ، ويدعو الأمة العربية إلى الإسهام في البذل والفداء[١] :

سائلِ العلياء عنّا والزمانا ... هل خفرنا ذمةً مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا ... لم تَزَلْ تجري سعيراً في دمانا
ضحك المجدُ لنا لمّا رآنا ... بدم الأبطال مصبوغاً لوانا
عُرس الأحرار أن تسقي العدى ... أكؤساً حمراً وأنغاماً حزانى

يا جهاداً صفّق المجد له ... لبس الغارُ عليه الأُرجوانا
شرفٌ باهت فلسطين به ... وبناءٌ للمعالي لا يُدانى
إنّ جرحاً سال من جبهتها ... لثمتْه بخشوعٍ شفتانا

(١) - ديوان الهوى والشباب ص : ١٦٥- ١٦٨ .

وأنيناً باحتِ النجوى به   عربيــاً رشفته مُقلتـانا

يا فلسطينُ التي كِدنا لِمـا   كابدته من أسىً ننسى أسانا
نحن يا أختُ على العهد الذي   قد رضِعناه من المهد كلانا
يثرب والقدسُ منذ احتلما   كعبتاناوهوى العُرب هوانا
شرف للموتِ أن نُطعمه   أنفساً جبارة تأبى الهوانا
انشروا الهولَ وصُبّوا ناركم   كيفما شئتم فلن تلقوا جبانا
غذّتِ الأحداثُ منا أنفساً   لم يزدها العنف إلا عُنفوانا

قُم إلى الأبطال نلمسْ جرحهم   لمسةً تسبح بالطِّيب يدانا
قم نجُع يوماً من العمر لهم   هَبْهُ صوم الفُصح هَبْهُ رمضانا
إنمـا الحق الذي ماتوا له   حقّنا ، نمشي إليه أين كانا

— ٢ —

ومن العراق علت صرخة الشاعر محمد مهدي الجواهري في الدور الأول من النكبة ، يدعو العرب إلى القوة والسلاح ، ويحذّرهم من الغفلة والنوم أمام نهم الطامعين في الاستيلاء على الوطن العربي ، بلداً بعد بلد ، وينذرهم بأنهم سيضيعون فلسطين ومكة وبغداد ودمشق

إذا لم يفتحوا أعينهم على الخطر ، ويعدوا له ما يستطيعون من أسباب القوة والصمود[1] :

فاضت جروح فلسطينٍ مذكّرةً ... جُرحاً بأندلسٍ للآن ما التأما
يا أمةَ غرّها الإقبال ناسيةً ... أن الزمان طوى من قبلها أمما
كانت كحالمةٍ حتى إذا انتبهت ... عضّت نواجذها من حرقةٍ ندما
سيُلحقون فلسطيناً بأندلسٍ ... ويعطفون عليها البيت والحرما
ويسلبونك بغداداً وجاّقةً ... ويتركونك لا لحماً ولا وضما
يا أمةَ لخصومٍ ضدّها احتكمت ... كيف ارتضيتِ خصيماً ظالماً حكماً
بالمدفع استشهدي إن كنت ناطقةً ... أو رمت أن تُسمعي من يشتكي الصمما
سلي الحوادث والتاريخ هل عرفا ... حقاً ورأياً بغير القوة احترما
لا تطلبي من يد الجبار مرحمةً ... ضعي على هامةِ جبارةٍ قدما
أقسمت بالقوة المعتز جانبها ... ولست أعظمَ منها واجداً قسما
إن التسامح في الإسلام ما حصدت ... منه العروبة إلا الشوك والألما
في حين لم تعرف الأقوام قاطبة ... عند التزاحم إلا الصارم الخذما

فيا فلسطين إن نعدمك زاهرة ... فلستِ أوّل حق غيلة هُضما
هزت رزاياك أوتاراً لناهضة ... في الشرق فاهتجن منها الشجو لا النغما

---

(١) ـ الفلسطينيات ـ مجموعة قصائد جمعية الرابطة العلمية الادبية في النجف : ص ١ ـ ٣ .

ثار الشباب ومن مثل الشباب إذا ريع الحمى وشواظ الغيرة احتدما
يأبى دمٌ عربيٌ في عروقهمُ أن يصبح العربي الحر مهتضما
لا يأبهون بإرهابٍ إذا احتدموا ولا بمصرعهم إن شعبهم سلما

— ٣ —

ومن سورية كانت أنات شاعرها الكبير عمر أبي ريشة تروي منذ الدور الأول للنكبة حكاية مصرع المجد عند تربة المسيح وعيثان اليهود في الأرض المقدسة رغم أنف الرجال(١) :

قف على تربة المسيح وشاهد مصرع المجد فوق طهر الرمالِ
عاث فيها المشردون رضيعو لبن الذل في مهود الضلال
كل يوم يرمون جمرةَ بغيٍ في هشيمٍ من نقمةٍ ونكالِ
والرجال الأباةُ رغم إباها تخفض الهام ، ياغرام الرجال!
نكد الدهر أن ينال جبانٌ من جسورٍ مشدد الأغلال
وإذا الناب والمخالبُ طاحت لطم الذئب جبهة الرئبال !
قل لمن يرعف الحسام بكفيـ ـه ضلالاً من أكبد الأبطال
إن صوت الطعنات تنخر في العظـ ـم وتزجي الأهوال بالأهوال
كصرير المسمار في كف عيسى ليس تنسى صداه أذن الليالي !!

---

(١)- عمر أبو ريشة : شعر ص ٢١٢ - ٢١٣ .

وعندما وقعت الكارثة سنة ١٩٤٨ وقضت الخيانة أن تقوم لاسرائيل دولة في فلسطين وأن يبوء العرب بالمذلة والانكسار ، سالت دموع الشاعر وانطلقت اللعنة من فمه تدمغ الجناة وتدينهم[1] :

أمتي هل لكِ بين الأمم   منبرٌ للسيف أو للقلمِ
أتلقّاكِ وطرفي مطرقٌ   خجلاً من أمسك المنصرم
ويكاد الدمع يهمي عابثاً   ببقايا كبرياء الألم
أين دنياكِ التي أوحت إلى   وتري كلّ يتيم النغم
كم تخطيت على أصدائه   ملعبَ العزّ ومغنى الشمم
وتهاديتُ كأني ساحبٌ   مئزري فوق جباه الأنجم
حلمٌ مرّ بأطياف السنا   وانطوى خلف جفون الظلم

أمتي ! كم غصة دامية   خنقت نجوى علاكِ في فمي
أيّ جرحٍ في إبائي راعف   فاته الآسي ، فلم يلتئم
ألاسرائيل تعلو رايةٌ   في حمى المهد وظل الحرم
كيف أغضيتِ على الذل ولم   تنفضي عنك غبار التهم
أو ما كنت إذا البغي اعتدى   موجةً من لهبٍ أو من دم
فيمَ أقدمتِ وأحجمتِ ، ولم   يشتفِ الثأرُ ولم تنتقمي
اسمعي نوحَ الحزانى واطربي   وانظري دمع اليتامى وابسمي

---

(١)- عمر أبو ريشة : مختارات ص ١١٠ - ١١٤ .

واتركي الجرحى تداوي جرحها   وامنعي عنها كريم البلسم
ودعي القادة في أهوائها   تتفانى في خسيس المغنم !
ربّ « وامعتصماه » انطلقت   ملءَ أفواه البنات اليتّم
لامست أسماعهم لكنّها   لم تلامس نخوة المعتصم !

أمتي ! كم صنم مجّدته   لم يكن يحمل ُطهر الصنم
لا يُلام الذئب في ُعدوانه   إن يك الراعي عدوّ الغنم
فاحبسي الشكوى فلولاكِ لما   كان في الحكم عبيدُ الدرهمِ

أيها الجندي يا كبش الفدا   يا شُعاع الأمل المبتسم
ما عرفت البخلَ بالروح إذا   طلبتها غصص المجد الظمي
بورك الجرح الذى تحمله   شرفاً تحت ظلال العلم

وأقبل العيد عام ١٩٤٩ على الشاعر فتلقّاه حزيناً كسير القلب[١] :

يا عيدُ ما افترّ ثغر المجد يا عيدُ   فكيف تلقاك بالبشرى الزغاريدُ
وكيف ينشقّ عن أطياف عزّتنا   حلمٌ وراء جفون الحق موءود
طالعتَنا وجراحُ البغي راعفةٌ   وما لها من أساة الحيّ تضميد
فللفجيعةِ في الأفواه غمغمةٌ   وللرجولة في الأسماع تنديد !

---

(١) ـعمر أبو ريشة : مختارات ص ١٠٤ ـ ١٠٦ .

فتلك رايتنا خجلى منكّسة　　فأين من دونها تلك الصناديدُ
ما بالها وثبتْ للثأر وانكفأت　　وسيفها في قراب الذلّ مغمود
يا للشعوب التي قادت أزمّتها　　على الليالي ، عباديدٌ رعاديد
فأطمعت كلّ باغٍ في كرامتها　　لا يُلطم الليث إلا وهو مصفود

ياعيدُكمفيروابيالقدسمن كبد　　لها على الرفرف العلويّ تعييد
سالت على العزّ إرواءً لغصته　　والعزّ عند أباة الضيم معبود
هيهاتلن يشتكيما طُلَّ من دمها　　فالحقد مضطرم والعزم مشدود
سينجلي ليلُنا عن فجر معترك　　ونحن في فمه المشبوب تغريد !

— ٤ —

وكان الشعراء العرب في المهاجر الأميركية يحّيون من وراء البحار فلسطين وجهادها ، ويبكون جراحها في صدق وحنين ؛ وفي الدور الأول من النكبة اجتمع المهاجرون العرب في بروكلن عام ١٩٣٨ بمناسبة ذكرى وعد بلفور المشئوم ، في حفل كبير،وألقى أحد شعراء الرابطة القلمية في المهجر ، السيد نسيب عريضة ، قصيدة تفيض باللوعة والألم [١]:

(١) ـ الأرواح الحائرة : ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣

فلسطين ، من غربةٍ موثقه ... نراعيكِ في الكربة المطبقه
فتعلو وتهبط منا الصدور ... ونهفو ، وأبصارنا مُطرقه
ومن خلف هذا الخضمّ البعيد ... نحييّكِ بالدمعة المحرقه

جهادُكِ أورى زناد النفوس ... فطارت شرارتها مُبرقه
جهادٌ ملأتِ به الخافقين ... فضاقت به القوة المرهقه
وسطّرتِ آياته في الخلود ... بأرواح أبنائكِ المزهقه
فلسطينُ ، كم آرقٍ بيننا ... وبعض البلية ما أرّقهْ
إلى ساحة المجد فيك يتوق ... ولكنّ حبل النوى أوثقه
فيمسي على ثورة في الحشا ... ويصبحُ والعينُ مغرورقه
وتبكي المروءة مجروحةً ... وتأسى الأمانيّ مخلوقه
لدمع اليتيم وأم اليتيم ... وكظم الصدور على المخنقه
حذارِ من الدمع يا أوصياء ... ففي لجّه عطش المحرقه
ولو صادف الدمع أسطولكم ... لخفنا من الدمع أن يغرقه !

خفرتم عهود الولاء الجميل ... لوعدٍ لبلفور قد لفّقه
ذبحتم فلسطين ، ياويحنا ... أبحتم حماها لمسترزقه

بني ربّة البحر ، لاتشمخوا ... سلوا الدهر ينبئكمُ عن ثقه

إذا نظر الكون شذراً إلينا　　فأعيننا تُحسن الحملقه
وإن يرغبِ العسفُ في ذلنا　　فويل المُذِلّ وما أحمقه

فلسطين ، أحييتِ أيامنا　　ومجداً لنا كان ما أبسقه
وبالدم وهو نجيع الحياة　　سقيتِ الثرى جرعة مدهقه
فيالدمائك مهراقةً　　فداءً لأمجادنا المهرقه

فلسطين سيراً إلى المشنقه　　فلسطين صعداً على المحرقه
وموتي فلسطين! فالموت فخر　　فداء لحريةٍ مطلقهْ !

— ٥ —

وحمل شعراء المهجر على « بلفور » ووعده ، وسخروا من كرمه الانكليزي حين يسخو على اليهود فيمنّيهم بقطعة أرض ليست من بلاده كما يقول شاعر المهجر الأول ايليا أبو ماضي في قصيدته « فلسطين » وهي أبيات تذوب ألفاظها سهولة ورقة وموسيقا ، وتتوثب معانيها قوة وعنفاً ورجولة ، وفيها جانب من السند الجدلي الذي يدعم حق العرب في فلسطين ، ويدك باطل اليهود ويهدم مزاعمهم وادعاءاتهم ، وهذا شيء لم ينتبه اليه أكثر شعراء النكبة الآخرين ، ولم يُعنوا به ،

كما فصلنا ذلك في الفصل السابق [1] ، يقول أبو ماضي [2] :

ديارُ السلامِ ،وأرض الهنا	يشق على الكل أن تحزنا
فخطب فلسطين خطب العُلا	وما كان رزء العلا هيّنا
سهرنا له فكأنّ السيوف	تحزّ بأكبادنا ههنا
وكيف يزور الكرى أعيناً	ترى حولها للردى أعينا
وكيف تطيب الحياة لقومٍ	تُسدّ عليهم دورب المنى
بلادهمُ عرضةٌ للضياع	وأمتهم عُرضةٌ للفنا
يريد اليهود بأن يصلبوها	وتأبى فلسطين أن تذعنا
وتأبى المروءة في أهلها	وتأبى السيوف وتأبى القنا
أأرضُ الخيال وآياته	وذات الجلال وذات السنا
تصير لغوغائهم مسرحاً	وتغدو لشذّاذهم مسكنا !
فقل لليهود وأشياعهم	لقد خدعتكم بروقُ المنى
ألا ليت « بلفور » أعطاكمُ	بلاداً له لا بلاداً لنا
(فلندن) أرحب من قدسنا	وأنتم أحب إلى (لندنا)
فليست فلسطين أرضاً مشاعاً	فتُعطى لمن شاء أن يسكنا
فإن تطلبوها بسمر القنا	نردّكمُ بطوالِ القنا
ففي العربيّ صفاتُ الأنامِ	سوى أن يخاف وأن يجبنا

(١) ـ انظر ماتقدم ص ٨٤ .

(٢) ـ الخمائل : ص ٩٤ - ٩٦

وإن تحجلوا بيننا بالخداعِ فلن تخدعوا رجلاً مؤمنا
وإن تهجروها فذلك أولى فإن فلسطين ملكٌ لنا
وكانت لأجدادنا قبلنا وتبقى لأحفادنا بعدنا
وإنّ لكم بسواها غنىً وليس لنا بسواها غنى
فلا تحسبوها لكم موطناً فلم تك يوماً لكم موطنا
وليس الذي نبتغيه محالاً وليس الذي رمتمُ ممكنا
نصحنا كمُ فارعووا وانبذوا « بليفور » ذيّالك الأرعنا
وإمّا أبيتم فأوصيكمُ بأن تحملوا معكمُ الأكفنا
فإنّا سنجعل من أرضها لنا وطناً ولكم مدفنا

— ٦ —

وللشاعر المهجري الياس فرحات شعر كثير في فلسطين ونكبتها، فإذا قرأنا ماقاله منه قبل التقسيم طالعنا زئير الشاعر العربي المعتز بأمته، الواثق بعزيمتها ونجدتها، وهو يهدد اليهود الطامعين ويتوعّدهم بالزحف العربي لإنقاذ الأرض المقدسة [1] :

لبيّكِ لبيكِ ياريحانة العرب يابنتَ عدنانَ يامعصومة النسب
النيل يزحف والعاصي ليشتركا والرافدين مع الأردنّ في الغلب

(١) — الخريف : ص ٦٢ — ٦٦

والرملُ أو مثله عداً ستقذفه   من الجزيرة ريحُ الحقد والغضب
يامن طغوا وتمادوا عاقدين على   وعدٍ سخيف بناءً شامخ القبب
ستعلمون متى حاق البلاء بكم   كم في الوعود وفي الآمال من كذب
وكم يكلّف تهييج الأسود وكم   خلف العتو والاستفزاز من نوب
ستندمون ولكن حين لا ندمٌ   يجدي ولا أسفٌ ينجي من العطب
سنغسل القدس من أوساخ أمتكم   ياأمة الوسخ المطلي بالذهب
والتلُ ، تل أبيب سوف نتركها   تلاً من الردم في بحر من اللهب
بنيتموها بمال السحت عاصمة   وليس يعصمكم منا سوى الهرب

صبراً فلسطين، من بدو ومن حضر   ستُنصرين ، ومن ثاوٍ ومغترب
إذا أباحك ضاديٌ لمغتصب   فقد أباح كريم العرض والحسب

فلما تم التقسيم وانتهت المهزلة الحربية بخيانة الملوك والرؤساء كان ألم الشاعر فرحات عميقاً حقاً ، نلمسه في ثورته العارمة على الخونة ودعوته الشباب العربي إلى الثأر ومحو العار [1] :

أشباب يعرب قم فنحن هنا   نلقى بملءِ صدورنا المحنا
قم نمحُ عاراً تحت وطأته   كادت تمسّ جباهُنا الدّمنا
قم ردّنا للحقّ نعبده   إنا لنوشك نعبد الوثنا

(١) ـ الخريف : ص ٨٨ ـ ٩٠

لولا رجاءُ النازحين عن الـ أوطان فيكَ لأنكروا الوطنا

. .

قل للمغير على منازلنا كالسيل ينفذ من هنا وهنا
حمّلت نفسك فوق طاقتها وركبت ويحك مركباً خشنا
إن لم يكن زمن يوافقنا للثأر منك سنخلق الزمنا
فاجعل ضريحك جاهزاً أبداً وأعدّ نفسك واحمل الكفنا

. . .

وإذا لقيت ذوي الجلالة من ساداتنا المتحكمين بنا
وذوي السموّ وكل ذي لقب خاوٍ كصاحبه قليل غنى
فاهزأ بألقاب لهم سمنت وكرامة هزلت أسى وضنى
ديست بأقدام اليهود فيا شُم الأنوف استنشقوا الدرنا

. .

أمهدِّمين بسوء دخلتهم يوم الكريهة ماصلاحُ بنى
دُقوا وغنوا في مآتمنا لكم البداءة والختامُ لنا
فستأكلون أكفكم ندماً وستشربون دموعكم حزنا
وستدفعون لكل سائلة عن عرضها أعراضكم ثمنا

وحملة فرحات على الملوك وخياناتهم تذكرنا بسياط أبي سلمى التي

ألهب بها ظهورهم وكشف بها مخازيهم . يقول فرحات[1] :

ملوكٌ ظنناهم صقوراً وعندما ... غُزينا رأيناصاحب التاج هُدهدا
أباحوا لأجلاف اليهود جبانةً ... بلاداً أغار المجد فيها وأنجدا
وعرضاً كأعلى الشمس أدناه أعجلت ... ذراري الخنى فيه لساناً محدَّدا
لهوا عن عصابات العدا باختلافهم ... فكانوا على الأوطان شراً من العدا
مطامعُ أفرادٍ بميراث أمةٍ ... مبعثرة يخشون أن تتوحدا

ويقول فرحات أيضاً[2] :

أرأيتمُ الزعماء كيف تخاذلوا ... أرأيتمُ الأقيالَ والأمراءَ
ذلَّ الجميعُ على عُلى ألقابهم ... لأذلَّ من وطىء الثرى استخذاء
حملوا المعرّة طائعين فحمّلوا ... أثقالها الإخوانَ والأبناءَ
نشرت مخازيهم على آفاقنا ... شرقاً وغرباً غيمةً سوداء
يتزاءرون كأنهم أسد فإنْ ... لمحوا العدا انقلبَ الزئير مواءَ
كبرت فريستهم على أقدارهم ... فتقاسموها بينهم أشلاء
كثر الملوك فكل منطقةٍ لها ... ملك يقيم الجند والوزراء
يمشي بها متعثراً فكأنه ... أعمى يجرُّ وراءه عمياء
والكائدون لنا يرون هلا كنا ... بعثاره فيصفقون دهاءَ

---

(١) ـ الخريف ص : ٩٩ ـ ١٠٠

(٢) ـ الخريف ص : ١٣٩ ـ ١٤٠

— ٧ —

لقد كان الشعراء المغتربون في المهاجر تؤرقهم أنباء النكبة الفلسطينية منذ الدور الأول وما يلاقيه العرب في الأرض المقدسة من اليهود وعصاباتهم في ظل ظليل من حماية السلطة الانكليزية ، وكانت أمنية المهاجرين أن يظهر بين العرب صلاح الدين الجديد ليقود حركة الجهاد في فلسطين ، وهذا صوت الشاعر المغترب جورج صيدح يسأل سنة ١٩٣٨ أين سيف صلاح الدين؟[1]:

واهاً فلسطين كم غازٍ قهرت وكم ... جيش رددت على الأسوار منهزم
حتى لُطمت بكفٍ لا سوار لها ... شعب بلا وطن ، جند بلا علم
حثالة القوم من شتى الديار أتت ... ببرقع الدين تخفي وصمة النهم
ماهابهم ظل فخر الأنبياء على ... تلك البقاع ومثوى أقدس الرمم
فأين سيف صلاح الدين يردعهم ... أما له خلف في العرب كلهمِ

بني فلسطين ، سيلُ الغاصبين طما ... كونوا له السدّ لا يعنو لمقتحم
نادوا الأخوّة في العرباء قاطبة ... واستنجدوا ببني الأعمام في العجم

---

(١) ـ ديوان النوافل : ص ١٣٠ ـ ١٣٢ ، وقد جعل الشاعر ريع هذا الديوان كله لمناصرة لجان الدفاع عن فلسطين ، وهو مطبوع سنة ١٩٤٧

لعلّ غضبتكم تسري إلى رحمٍ ... في الشرق أو تلتقي في الغرب في الذمم
كم في المهاجر من عينٍ تراقبكم ... وكم فؤاد بنار الوجد مضطرم
وكم يدٍ بالندى تسخو لنجدتكم ... وكم لسانٍ لكم يدعو وكم قلمِ

مهلاً خلائف (بلفور) الكريم لقد ... جاوزتمُ شأوه في حلبة الكرم
حامي حمانا ، حمانا الله منك ومن ... وصايةٍ فرضتها عصبة الأمم
أكل شأنك ارغام الشعوب وأن ... تقوم فيها مقام الخصم والحكم
مهدُ النبوة نأبى أن تدنسه ... إن نام فيه بنو صهيون لم ننم

وفي عام ١٩٤٣ يزور بعض الأمراء السعوديين الولايات المتحدة، فيذكرهم الشاعر المغترب صيدح بمأساة البلاد المقدسة ، ويتغنى بالدعوة الي وحدة العرب ، مسلميهم ومسيحييهم ، لإنقاذ الوطن المهدَّد[1] :

شعب صهيون إن جهلت علينا ... علّمتك السيوف ماليس تعلمْ
إن للقدس راية ليس تُطوى ... لاتطول« الهلالَ » أنيابُ أرقم
ذاك « واد بغير زرع » سكنّا ... لنقيم الصلاة لادارُ أعجمْ
جلَّ مهدُ المسيح ما كان سوقاً ... وضريح المصلوب ما كان منجم
أو ضاقتْ مجاهل الأرض عنكم ... أم حلالُ الشعوب فينا محرّم

---

(١) ـديوان النوافل ص : ١٤٥-١٤٧ .

وعدوكم بنا ولله وعدٌ بعذاب للظالمين محتّم

قل لمن دسَّ في الصفوف شقاقاً بين طه وبين عيسى بن مريم
جحد الدين جاحدُ الوطن الغالي سواء مقلنس ومعمّم
علم الله ما غوى عيسويّ إن دعاه الجهاد لبّى وأسلم
والنبيّ الذي يحرّر قومي قلت : صلى عليه ربي وسلّم !

وتحل الكارثة ، وتُصرع فلسطين ، وتقوم فيها دولة لاسرائيل ، فيقول صيدح شعراً تلفحنا منه زفرات تؤج كالنار من قلب تدميه الحسرة على الأرض العربية الشهيدة ، وفي قصيدة (الحجيج) التي قالها في سنة ١٩٤٩ نكاد نلمس (نبضات) الألم وهي تضطرم في أعماق نفسه[١] :

حجوا جناح الله واعتصموا ياقاضي الحاجات كن لهمُ
إن الحجيج يحثهم أمل غيرُ الحجيج يحزهم ألم
علمٌ على الحرمين ذكّرهم بالثالث الهاوي به العلم
بالمسجد الأقصى ، بجيرته بمآتم في العيد تنتظم
بفواجع في الدور نازلة لم تنجُ من أهوالها الخيمُ
حملت فلسطينَ الصدورُ إلى قبر الرسول اليه تحتكم

(١) ـ ديوان نبضات : ص ٢٥-٢٦

تستشفع الأضحى وحرمتـــه   في موطن هـانت بـه الحُرم
في أمـةٍ للبيت زاحفـــةٍ   والغـاصبون ببيتها ازدحموا ...

الفـأر يلعب في عرائنهـا   والليث في الأوجـار معتصم
العابثون بحقنـا اتحـــدوا   والقـائمون بأمرنا انقسموا
حتى مـتى هـذا الخنوع لهم   يا أمـــةً دانت لهـا الأمم
ثوري عليهم إنهم رممٌ   بئس الشعوب تقودهـا رمم
قسماً بأوطـانٍ أقدسهـا   إن جاز لي بالمقدس القسم
للعُرب أوضـاعٌ إذا انحطمت   أضـلاعُ إسرائيـل تنحطم
يا يوم يغـلي في العروق دمٌ   ويهـب للثـــارات منتقم
سنرى الدخيل يعض اصبعه   ندماً ، ولم يشفع بـه الندمُ
والمالكين هوت أرائكهم   فبكوا لو اسطاع البـكا صنمُ

ثم يرجع الشاعر النازح إلى وطنه ، وعار أمته في فلسطين يقض مضجعه ، وفي قصيدة (الغراب الغازي) يقص علينا الشاعر العائد قصة ذلك الغراب الذي اقتحم عليه غرفته في بحمدون ، فخيّل إليه أنه قادم من هناك .. من اسرائيل[1] :

تطيّرتُ من ناعب في الصباحْ   دخيلٍ على مهرجان السنـا

---

(١) ـ أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣

مغيرٍ يمزّق شمـــل الرياحْ إذا دافعته عـــن المجتنى
غمامـة غمّ تجـاه البطـاح وراية شـؤمٍ على المنحـنى
تقزّز منـه عيونـ الأقاح وتُطبـق أجفـانهـا إن دنا
تسرّب في غرفـتي واستراح فسرّب منـــه إليَّ العنـا
كأني اعتزلت حياة المراح خصيصاً لأخلو بـه ههنـا
خلا الجوّ من هينمات الصداح وحـلّ النعيق محـل الغنـا
أتأبى جوارَ الغراب الوقاح عجافُ الطيور وأرضى أنا ؟
ومن أنبأ الطير أنـ اجتياح مقـاميَ أيسرُ ما في الدنى ؟

وأنّ انتسـابي إلى يعربِ
يحلّـل مـأوايَ لـلأجنبي !

وأني أهـدّده بالفنـا بكفي،وكفي خلَتْ من سلاحْ؟

أضيفَ الهنا إن بيتي المبـاحْ صغـيرٌ يضيق بضيف الهنـا
وزادي ـ أعيذك منه ـ جراحْ أغمّس فيها فتات الضنى
شهرتُ عليك لساني الصراح فأعيا ، أأطولُ منـه القنـا
سألتك بعـد الغدوّ الرواح عسى البين يصلـح ما بيننا
وماضرّ لوزرت (تلّ) السفاح وعشّشت بـين وكور الخنـا
هنالك سِربُك يجني الرَّباح ولا يُسأل اللص عمّا جني
كرهتُكَ ضيفاً دجيَّ الوشاحْ دجيّ الحواشي دجيَّ المُنى

إذا وصفتك القوافي الفصاحْ دعوت عليها بأن ترطنا
تسيء وأنت طليق السراح ويرزح بالقيد من أحسنا
أحلتُ عليك النسور الغضابْ
ولكن .. حسدتك يا ابن التراب
ترود الأعالي وأبقى هنا فعندك ماليس عندي ـ سلاحْ !

— ٨ —

وليس غريباً أن يجمع بعض الشعراء بين نكبة العرب بفلسطين الشهيدة و نكبتهم بالأندلس ، فهذا هو الشاعر اللبناني الاستاذ محمد علي الحوماني يغمس ريشته بدم قلبه ليكتب سنة ١٩٥٣ موشحة حزينة يسميها « أندلس الشرق »[1] :

ويكِ يا جامعةَ العُرب ذوى غُصن المجدِ ولمّا يكتسِ
أين من يومكِ في وادي (طوى) يوم (فرديناند) في الأندلس ؟

صيحةٌ دوّت على كلّ فمِ وقّر الذعر بها سمع الزمنْ
فانبرى طوعاً لها كلّ كمي نافراً من (حلب) حتى (عدن)

(١) ـ ديوان النخيل : ص ٣٤ ـ ٤٥

ينشد العزة إرث المسلم   باذلاً من دمه أغلى ثمن
يضرب الأرض ويستوحي السما   أين من عينيه بيتُ المقدسِ
هاتفاً بالعُرب من كلّ حمى   فصلّي يا أرض منهم والبسي

حفل (اليرموك) بالصيد الألى   حرّرت آباؤهم شُطآنَهُ
عانق الأردنّ فيه الموصلا   والشآم اعتنقت عمّانه
ومشت مصر تقود الجحفلا   تتّقي شهبُ السما سودانه
فإذا غزّة سوداءُ الضحى   وإذا اليرموك ضاحي الغلس
وإذا صهيون في شقّىْ رحى   يتلقى وثبة المفترس

زمجرت نجدٌ وثارت جلّقُ   فاستفزّ الذعر قلب الرافدينْ
ومشى تحت العجاج الأزرقُ[1]   بالأناشيد تهزّ الخافقين
وتعالى للسماء الأبلقُ[2]   هاتفاً بالأسد خلف الغوطتين
فاذا المسلمُ في بحر الدما   ينشد العزّة فوق القدس
وإذا يعرب يُزجيها الظما   للمغيرين على نابُلُسِ

---

(١) ـ الأزرق نهر في شرقي الاردن
(٢) ـ الأبلق جبل في الإقليم الشمالي (سورية)

ثم ماذا كان، والكون دجا — والسماء امتلأت بالشهب
ومشى الجند يشق الرهجا — باعثاً في الأرض مجدَ العرب
... كانت الهدنة، يا بئس الرجا — في الألى دانوا لها من كثب
عفّروا بالمشتري وجه الثرى — وتولونا حفاة الأرؤس
فإذا الثعلب يحتلّ الشرى — واذا الليث حبيس النفس

من رأى الأيّم في عرض الفلاة — نهب ثكل وشقاء ووصبْ
هتكت حرمتها أيدي الجناة — من عدوّيها: يهود وعرب
فاستوى الموت لديها والحياة — تحت بؤسين: هوان وسغب
لا الأبُ الحارس يحميها ولا — هي من أمتها في حَرَسِ
معقل الآباء إذ منهم خلا — عاد بالأبناء واهي الأسس

يا مغيب الشمس جددت الأسى — في فلسطين بما لم نُطقِ
نكبات بذّتِ الأندلسا — إذ تبنّاها بنو المصطلق[1]
كلما قيل انتهت قلنا عسى — أن يعود الشرق غضَّ الشفق
و «عسى» كانت ولم تبرح لدى — كل جيل عدة المبتئس
ذهب العمر مع القول سدى — وسوى الأقوال لم نلتمس

---

(١) ـ بنو المصطلق: قبيلة يهودية في جزيرة العرب

- ٩ -

كانت مأساة فلسطين تشغل منذ الدور الأول من النكبة أكثر شعراء العالم العربي ، فكانوا إذا بكوا في شعرهم مصائب أمتهم خصوا فلسطين بالدمعة السخينة ، وصرخوا في النائمين الغافلين صرخة الإنذار والتنبيه، ففي عام ١٩٣٨ كان الأستاذ خليل مردم بك يستثير همة العرب لمأساة اللواء وأحداث الاسكندرونة بقصيدة عامرة عرّج في آخرها على فلسطين ، وثار على ما رآه من تخاذل العرب عن نجدتها [١] :

بني العروبة كم من صيحة ذهبت لو يستثار بها الموتى إذاً ثاروا
إن الحوادث لو أدركتمُ عبر فأين ـ لا أين ـ ألباب وأبصار
الرحم واشجة والدار جامعة فلِمْ تقطَّع أرحام وأقطار
هنتم على كل شعب من تخاذلكم شأن العبيد وباقي الناس أحرار
لم تُغن كثرتكم عنكم كأنكمُ على المزيد ـ ولا أرقام ـ أصفار..
تُخرّبون بأيديكم بيوتكمُ جهلاً أكلّكمُ يا عرب أغمار
ياليت شعري ماذا يستفزّكمْ حمىً مباحٌ وإذلال وإفقار
أرى الحجارة أحمى من أنوفكمُ كم أرسلت شرراً بالقدح أحجارُ
إخوانكم في فلسطين تنالهمُ بالسوء والعسف أنياب وأظفار

---

(١) ـ ديوان خليل مردم ص ١٣٦ .

مهد المسيح ومعراج النبي وأولى القبلتين بها لم يأمن الجار
كم ريع سربٌ بها بغياً وكم هتكت من حرمة الحرم القدسي أستار
أين السوابق للجلّى إذ نزلت إن الحوازب والأحداث مضمار

— ١٠ —

وفي قصيدة من قصائد شاعر الشام الأستاذ شفيق جبري ، التي مجّد فيها ثورة العرب، مثلت لعينيه فلسطين« وهي — كما يقول — ليست لأهل فلسطين وحدهم ، وانما هي للعرب كلهم » فراعته جراحها وآلامها فقال [1] :

أيعيث اليهود في حرم القد س فساداً والنوم يأخذ منا
لفظتهم جوانب الأرض شذّا ذاً فتاهوا القرون قرناً فقرنا
ضجرت منهم الشياطين والإنـ س فأنّى نحنو عليهم أنّى
احصدوهم حصد السنابل حتى تتداعى صهيون ركناً فركنا
لو تمور السماء والأرض مادا نت فلسطين عنوة أو دناّ
أربعٌ لو تطيق رجع بيان لتعالى البيان فيها ورنّا
فكأن الجبال تقذف حقداً وكأن البحار ترسل ضغنا

(١) — أنا والشعر : ص ٣٠

كم لفيفٍ على رفات لفيفٍ ضاحك في جهاده يتغنى
وغصون من الشباب نُضار كل غصن على الردى يتثنى
جثث بعضها يموج ببعض سافنات وجه الأباطح سفنا

-١١-

أما شاعر دمشق الأستاذ أنور العطار فله في فلسطين ومأساتها شعر يلتهب عاطفة وأشواقاً ، فهو يناجي الربوع المقدسة نجوى محب هائم له في جنباتها ذكريات عامرة بالحنين ، وهو يبكي مصرع البلد الشهيد بكاء الحزين الواله[1] :

فلسطين يادنيا الهناءة والحُب ويامهبط الإلهام والحلم العذب
عليكِ سلامُ العرب يندى مواجعاً ويشرب دمع العين غرباً إلى غرب
تطوف بك الذكرى ويهفو بك الهوى
كأني منك الجسم خلواً من القلب
بنفسي وأهلي وهدَها وهضابها فيامهجتي ذوبي على الوهد والهضب
حننّا إليها وهي ملء ضلوعنا كأنّ رُؤاها عن تباريحنا تنبي
ديار الهوى لازلتِ مخضرّة المنى ترفّ على مغناكِ فيناتهُ العشب

(١) — قصيدة (فلسطين) له ـ مجلة (المسلمون) : المجلد٥ العدد٧ ص٦٥-٦٧ وقد تفضّل الشاعر فأعارني المخطوطة الأخيرة المنقحة للقصيدة .

أراكِ بعين الحب طيفاً مجسّداً يقاسمني كرْبي ويغفرُ لي ذنبي
فهل لفّنا الماضي خيالاً على المدى وألّفنا كالهُدب يعلق بالهدب
أيا روضة الأحباب لولاكِ ماارتوت جفوني ولا روّتك بالهاطل الصبّ
خيالك في عيني وذكراكِ في فمي وبي منكِ ما يُغري المحب وما يصبي
وما ذكرتك النفس إلا تولهّت وهيّمها برحٌ فباتت بلا لُبِّ

فيالكِ ذكرى ملؤها الوجد والأسى مضرّجة الأعطاف بالنوح والندب
دهتك من الدنيا كوارث جمّةٌ وألقت بك الويلات في مزلق صعب
وما غِيرُ الأيام مهما تفاقمت بأعظم مما ذُقت من فادح الخطب
أيغدو مطافُ المجد نهباً مقسماً ولا تغضب العرباء للنهب والسلب
وكانت إذا نابت دياراً أذيةٌ تفجرت الأرواح بالسّمر والقضب
حنانيك ربي ماليعرب لم تُفق وما خُلقت إلا من الشب والهب
فما بالها إن هاجها البغي لم تهج وإن قُرعت بالسب أغضت على السب
أحقاً توانت عن منازلة العدا
أصدقاً، وليت الصدق ضرب الكذب
وهل غصب العادي ديار أحبتي
وقرّت نفوس العُرب طوعاً على الغصب

أطل وقفة في الدار والثم ترابها فمن حقها أن تلصق الخدّ بالترب

وناجِ دماءً أهرقت في رحابها وسلسل لها وجدى وصوّر لها حبي

وقل ياديارا مضّها لاعجُ الأسى وأسلمها الباغي إلى الهم والكرب

أيا طول كربي إن خلصت إلى العدا ولم ترجعي يادارة العُرب للعرب

فقد ينجلي الليل الطويل عن السّنا وتزدهر الأعواد في المهمه الجدب

ويرجع وجه السلم جذلان ناضراً

بحربٍ تلفّ الأرض بالطعن والضرب

إذا لم يكن في السلم خير ونعمة فما الخير إلا في ممارسة الحرب

وقد كان لحصار الجيش المصري في الفالوجة ، وموقف الجيوش العربية الأخرى المخزي منه صدى أسف ولوعة في العالم العربي، وهذا صوت الأستاذ العطار يلوم العرب على هذا التخاذل عام ١٩٤٩[1]:

يالثاراتٍ يعربٍ أين منا من يُلبي النداء يوم اللقاء

أيخوض القتال جيش وحيد وجيوش العرباء كالرقباء

ليس كالخُلف في اشتجار العوالي واصطدام الأرزاء بالأرزاء

ليس نحيا في جفوة وخصامٍ لايصون الوفاء غير الوفاء

لايعيش الحمى على عنت الكره ولا يُبتنى على البغضاء

بالدم اليعربي تُرعى فلسطين وتروى الرمال في سيناءِ

فلنخض عِثير الجهاد لِننْقى مالنا غير خوضه من نقاء

---

(١) ـ من قصيدة للشاعر في تكريم ايليا أبي ماضي سنة ١٩٤٩ .

-١٢-

لقد استأثرت خيام اللاجئين بأكبر نصيب من شعر النكبة ، وغدت الخيمة السوداء رمزاً كريهاً للنكبة ، وهذه صورة رهيبة لـ«خيمة البهتان» كما يسميها الشاعر المصري المبدع الكبير الأستاذ محمود حسن اسماعيل ، التقطها عام ١٩٥٢ « للاجئ من عرب فلسطين الأحرار ، يستصرخ أخاه العربي من وراء خيمته ، وقد هبت عليها أعاصير الشتاء ، فراح بين السيل والويل يستثير جذوة النضال العربي في صدور الأحرار ، ضد غدر السياسية ولؤم الاستعمار »[1] :

أخي .. قد مزّقت ريحُ الدجى بيتي وأيامي
وساقتني على الأرضِ بهذا الهيكل الدامي
وهذا الشبح المطرود في هذا الأسى الطامي
يُنادي : أين مُلك الله تخبط فيه أقدامي
وأين الأرض تحملني وتدفن بعض آلامي
وبعض خطاي في هذا الدجى المتضجر الهامي ..

هنا في كبوة الأقدار بين السيل والويلِ

---

(١) - ديوان « نار وأصفاد » ص ٨١ - ٨٢ .

وبين عواء شيطان طريدِ الجنّ مختل
يقعقع للرعود السود مأخوذاً من الهولِ
سمعتُ فحيح ثعبان على رئتيَّ منسلِ
تدفّق جسمُه المقرورُ بين حفـائر السُلِ
وبين شتاء بستـانٍ بدفء الموت مخضلِ

هنا في خيمة البهتانِ والطغيـان والزورِ
لدى مأوى كلحد الميت في النسيان محفور
رُميت كدعوةٍ وقفت على درب المقادير
يصب التيه في خلدي خطا الظلماتِ في النور
فأشربُ حيرتي وبُكايَ من كف الأعاصير
وأذرفُ أدمعي الخرسـاء في صمتِ الدياجير !

أخي .. قد غال ذئبُ الجوع أطفالي مع الفجرِ
وبعثرهم جنون السيل بين مداخل الصخر
فلا أدري لهم شجناً على نعشٍ ولاقبر
كما كانوا هنـا .. عادوا بلا سكنٍ ولا عُمر
ظللتُ أنوحُ ياربـاه ! بعض نداك للجمر ..
فجاء الموتُ يفغر فاه للظلماتِ والقفر !

سلوهم .. واسألوا ماشئتمُ الاسلام والعربا
وكيف على تُراب الذل لم يتمزّقوا غضبا
وكيف غدت فلسطين بهم تتجرّع النُوَبا
تنوح على سلاسلها وتشكو القيد واللهبا
وهم لمذابح الطغيان ساقوا اللهو واللعبا
وقالوا : الشرقُ !قلتُ : صحاعلى أفواهكم كذبا..

— ١٣ —

كان شاعر الدور الأول من النكبة إبراهيم طوقان ينفخ روح المقاومة والجهاد فى نفوس مواطنيه في فلسطين ، وقد أحس في سنة ١٩٢٨ بما تسرّب إلى الروح الوطنية العربية من وهن وتشاؤم ،فأرسل هذه الصرخة المتفائلة[١] :

كفكف دموعكَ ليس ينفعكالبكاءُ ولاالعويلُ
وانهض ولاتشك الزمان ، فما شكا إلا الكسول
واسلك بهمّتك السبيلَ ، ولاتقل كيف السبيل
ماضل ذو أملٍ سعى يوماً وحكمتُه الدليل

---

(١) — ديوان ابراهيم : ص ٤٦ - ٥٠

كلاًّ ، ولا خاب امرؤ يوماً ، ومقصده نبيلُ

أفنيت يامسكين عمرك بالتأوه والحزَنْ
وقعدتَ مكتوف اليدين تقول : حارَ بني الزمنْ
مالم تقم بالعبء أنتَ ، فمن يقومُ به إذنْ !

. . .

كم قلتَ : «أمراض البلاد» وأنت من أمراضها
والشؤم علّتها فهل فتشت عن أعراضها
يامَن حملتَ الفأس تهدِمها على أنقاضها
أقعد فما أنت الذي يسعى إلى إنهاضها
وانظر بعينيك الذئاب تعُبُ من أحواضها

وطن يُباعُ ويُشترى وتصيح«فليحيَ الوطنْ»!
لو كنت تبغي خيرَه لبذلتَ من دمك الثمنْ
ولَقُمت تضمد جرحه لو كنت من أهل الفطن

. . .

أضحي التشاؤم في حديثك بالغريزة والسليقهْ
مثلَ الغراب نعى الديار وأسمع الدنيا نعيقه

تلك الحقيقةُ والمريضُ القلبِ تجرحه الحقيقهْ
أمل يلوح بريقه ، فاستهدِ ياهذا بريقهْ
ماضاق عيشك لوسعيت له ، ولو لم تشكُ ضيقهْ

لكن توهمت السقام ، فأسقم الوهمُ البدنْ
وظننتَ أنك قدوهنت فدبَّ في العظم الوهن
والمرءُ يُرهبه الردى مادام ينظر للكفن

. . .

حي الشباب وقُل سلاماً إنكم أملُ الغدِ
صحت عزائمكم على دفع الأثيم المعتدي
واللهُ مدَّ لكم يداً تعلو على أقوى يدِ
وطني أزف لك الشباب كأنه الزهر الندي
لا بُدّ من ثمر له يوماً وإن لم يعقِدِ

ريحانه العلم الصحيحُ ، وروحه الخلقُ الحسنْ
وطني ، وإنَّ القلب ياوطني بحبك مرتهن
لايطمئنّ ، فإن ظفرت بما يُريد لك اطمأنْ
ولكن دون تفاؤل ابراهيم طوقان تلك العصابة من الزعماء

الـذين ابتليت فلسطـين بهم[1] :

قد سقى الأرض بائعوها بـكاء لعنتهم سهولها ورباها

وطني مبتلى بعصبة (دلاّ لين) لايتقون فيه الله

في ثياب تُريك عزاً ولـكن حشوُها الذلُ والرياء سداها

حُسبوا في الرجالِ هل كانت الأنعام إلا لمثلهم أشباها !

يارجال البلاد ياقادة الأمـــة ماذا دها كم ودهاها

صكّت الألسنُ المسامعَ حتى لقيت من ضجيجكم ما كفاهـا

عرف الناس والمنابر والأقـ لام أفضالكم فهاتوا سواهـا

كلّـكم بارع بليغ ـــ بحمد الـ له ـــ طبّ بحالنـا ودواهـا

غير أن المريض يرقب منكم هذه الجرعة التي لايراهـا

كان أولى بكم لو انّ مع القو ل فعـالاً محمودة عقباهـا

رحم الله مخلصـاً لبـلادٍ ساوموه الدنيا بها فأباها

لو أتوه بالتبر وزْن ثراها لأباه وقال : أفدي ثراهـا

أنفروا أيهـا النيام فهذا يومَ لاينفع العيون كراها

لاسمت أمـة دهتها خطوب أرهقتها ولايثور فتاها

(١) ـــ ديوان ابراهيم : ص ٥٥ ـ ٥٦

— ١٤ —

وهذه أخت ابراهيم ، الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان ، تقول في قصيدة أسمتها « بعد الكارثة »[١] :

يا وطني ، مالك يحني على — روحك معنى الموت ، معنى العدمْ
أمضّك الجرح الذي خانه — أساتُه في المأزق المحتدم
جرحك ، ما أعمق أغواره — كم يتنزّى تحت ناب الألم
أين الأُلى استصرختهم ضارعاً — تحسبهم ذَراك والمعتصم
ما بالهم قد حال من دونهم — ودون مأساتك حسٌّ أصم
قلّبت فيهم طرف مستنجد — فعزّك المندفع المقتحم
واخجلتا ! حتّام أهواؤهم — تغرقهم في لجّها الملتطم
همُ الأنانيون .. قد أغلقوا — قلوبهم دون البلاء الملم
لا روح يستنهض من عزمهم — لا نخوة تحفزهم ، لا همم !
أحنوا رقاب الذلّ ، ياضعفهم — واستسلموا للقادر المحتكم

ستنجلي الغمرةُ يا موطني — ويمسح الفجر غواشي الظلم
والأمل الظامىء مهما ذوى — لسوف يُروى بلهيب ودم

---

(١) ـ وحدي مع الأيام : ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

لن يقعد الأحرار عن ثأرهم   وفي دم الأحرار تغلي النقم

وفي قصيدة فدوى طوقان التي تسميها « نداء الأرض » صورة شعرية رائعة لثورة الحنين في قلوب المشردين إلى الأرض السليبة[1] :

تمثّل أرضاً نمته وغذّته من صدرها الثرّ شيخا وطفلا
وكم نبضت تحت كفيه قلباً سخيّاً وفاضت عطاءً وبذلا
تمثّل - وهو يلوب - انتفاض ثراها إذا ما الربيع أهلّا
وماج بعينيه كنز السنابل يحضنه الحقل خيراً مطلّا
ولاح له شجر البرتقال وهو يرفّ عبيراً وظلّا

وهاجت به فكرةٌ كالعواصف لا تستقرْ
تواكب تلك الطيوف تساير تلك الصور :
أتُغصب أرضي ؟ أيُسلب حقي وأبقى أنا
حليفَ التشرّد أصحب ذلّة عاري هنا
أأبقى هنا لأموت غريباً بأرضٍ غريبهْ
أأبقى ؟ ومن قالها ؟ سأعود لأرضي الحبيبهْ
بلى سأعود ، هناك سيُطوى كتاب حياتي
سيحنو عليَّ ثراها الكريم ويُؤوي رفاتي

سأرجع لا بدّ من عودتي   سأرجع مهما بدت محنتي

(١) - وجدتها : ص ٨ - ١٩ .

وقصة عاري بغير نهـايهْ   سأنهي بنفسي هذي الروايهْ
فلا بدّ ، لا بدّ من عودتي

وظل المشرّد عن أرضهِ   يُتمتم : لا بدَّ من عودتي
وقد أطرق الرأس في خيمته   وأقفل روحاً على ظلمته
وأغلق صدراً على نقمته

وما زالت الفكرة الثابتهْ   تدوّم محمومَةً صامتهْ
وتغلي وتضرم في رأسهِ   وتلفح كالنار في حسّهِ
سأرجع لا بدّ من عودتي

وفي ليلةٍ من ليالي الربيـع الدفيئهْ
مشى ذاهـلَ الخطو تحت النجوم المضيئهْ
وراح يدور بأفق خواطره الشارداتْ
يلاحقهنّ ويُمعنُ بعداً مع الذكريات
ويُبصر يافا جمالاً يضيء على الشاطىءِ
ويسمع غمغمة الموج في بحرها الدافىءَ
ويلمح بالوهم طيف القوارب والأشرعهْ
تقبل وجه الصفاء في الزرقة المترعهْ
ومرّت على وجهه - وهو يحلم - نسمهْ

مضمّخة بشذى البرتقال تعطّر حلمهْ
وكانت كهمسٍ تحجَّب مصدره واستترْ
كهمسٍ من الغيب وافاه يحمل صوت القدرْ

وأوغل تحت ضياء النجوم يمشي ويمشي كمن يحلمُ
وكان بعينيه يرسب شيءٌ ثقيلٌ كآلامه ، مظلمُ
لقد كان يرسب سبع سنين انتظار طواها بصير ذليل
تخدّره عصبة المجرمين وترقده تحت حلم ثقيل

لقد كان يرسب سبع سنين طوال المدى عاشها في سؤال
متى سأعود؟ وكان الجوابُ صمتاً يمدُّ رهيبَ الظلال
وما زال يمشي سليبَ الارادة تدفعه قوةٌ لا تُردّ
إلى أين؟ لم يدرِ ، كان الحنين نداءً ألحَّ به واستبد
كأنّ من الأرضِ ، من أرضه تصاعد يدعوه صوتٌ شرودْ
يُجلجل في قلب أعماقه ويجذبه ما وراء (الحدودْ)
هناك تناهت خطاه ، هناك تسمّر عند السياج العتيقْ
هناك تيقّظ وعياً رهيفاً وحساً عجيب التلقّي دقيقْ
وفي نفسه كان يزدحم الدمع والشوق والسوْرة المفعمهْ
ورجعُ نداءٍ مُلحٍّ قويٍ وموجة عاطفة مبهمهْ
ورائحه الأرض في قلبه مزيجُ حنانٍ ونفح شذيٍ

وللصمت من حوله ألف معنىً يعانق ألف شعورٍ خفيِّ

وأهوى على أرضه في انفعال يشم ثراها
يعانق أشجارها ويضمّ لآلي حصاها
ومرّغ كالطفل في صدرها الرحب خداً وفمْ
وألقى على حضنها كلّ ثقل سنين الألم
وهزَّته أنفاسها وهي ترعش رعشة حب
وأصغى إلى قلبها وهو يهمس همسة عتب!
— رجعتَ إليَّ؟

— رجعتُ إليك وهذي يدي
سأبقى هنا، سأموت هنا، هيِّئي مرقدي
وكانت عيون العدو اللئيم على خطوتينْ
رمته بنظرة حقدٍ ونقمهْ
كما يرشق المتوحش سهمه
ومزق جوف السكون المهيب صدى طلقتينْ

. . . .

بدا الفجر مرتعشاً بالندى يُذرذره في الربا والسفوحْ
ومرَّ بطيءالخطافوق أرضٍ مضمّخةٍ بنجيعٍ نفوحْ
تلفّ ذراعين مشتاقتين على جسدٍ هامدٍ مستريحْ

أما شاعر النكبة أبو سلمى ففي كل قصيدة من قصائده فيها حملة على الملوك والرؤساء العرب الذين خانوا أمانة فلسطين وأعانوا على تشريد شعبها . يقول في إحدى قصائده لواحد من أولئك الملوك [1] :

ياعارياً من ثياب المجد كيف ترى ... أرض الخلود وقد ضلَّت بك السبُلُ
هذي فلسطين هل أشجتك تربتها ... تبكي الأحباءَ من غابوا ومن رحلوا
وهل شجاك الدم المطلول تسفحه ... أيدي الجناة وقد عاهدت من قتلوا
تبكي المروءات مرخاةً غدائرها ... وما انتخت للجهاد البيض والأسل
تبكي العذارى وأذيالاً مطهرةً ... لم يحم تلك الذيولَ الفارسُ البطل
تبكي دويلات سوء سمّيت دولاً ... وخلف كل رداء يختفي هُبل
حرباً على الشعب مازالت مضلّلة ... لا كانت الحرب بل لا كانت الدول

قال الملوك : غداً نحمي دياركمُ ... ليت الأذلاء ما قالوا وما فعلوا
وعلّلونا بساح المجد ننزلها ... إذا بهم ساعة الجلّى هم العلل
قالوا : الكرامة ! قلنا أين صاحبها؟ ... قالوا : الرجولة ، قلنا أيهم رجلُ؟
باعوا فلسطين فلتهنأ ضمائرهم ... أما تراها على (الدولار) تشتعل

(١) ـ أغنيات بلادي : ٨٥ ـ ٨٦ .

ويقول أبو سلمى في قصيدة أخرى [1] :

قالوا : الملوك ! وكيف أجهلهم ... هم شرّدوا أهلي وهم نكبوا
شادوا القصور على جماجمهم ... وعلى الدسائس حولنا دأبوا
هل تُعبد الأصنام في زمنٍ ... تهوي به الأصنامُ والنُصُب
يتستّر المستعمرون بهم ... هل يستر التضليل والكذب
لا يختفي استعمارهم ولهم ... في كل قصر داعرٍ ذنب
الشعب يعرف باسم من حكموا ... ومن الذين وراءهم ركبوا
ومن الذي بالمجد منتقبٌ ... ومن الذي بالعار ينتقب

قل الذين جنوا على وطني ... ما بيننا الأيام والحقب
مِن قبلكم مرّ الطغاة بنا ... هل تعثرون بهم ؟ لقد ذهبوا
عصفت بهم نارٌ مقدسة ... وإذا بهم لجهنّمٍ حطب

ويثور أبو سلمى على من يتهم الفلسطينيين بالتقصير في الحرب وحماية الوطن ، ويرد عليه معدداً تضحيات الشعب الفلسطيني العربي وجهاده [2] :

قسماً بالسّفوح إنا حملنا ... يافلسطين في هواكِ العذابا
وإذا ما سألتِ عنا انتسبنا ... وأبينا إلاّ إليك انتسابا

---

(١) ـ أغنيات بلادي : ص ١٠٥ ـ ١٠٦

(٢) ـ أغنيات بلادي : ص ١٢٥ ـ ١٢٨

ما بعُدنا عن طيب أرضك إلا | زادنا البعد من ثراك اقترابا
وزرعنا الأشواق في كل أرضٍ | ليتها أنبتت قناً وحرابا
وافترقنا ـ وأنت في القلب ـ أعوا | مَ دهورٍ مذلةً واغترابا
والتقينا على ملاعبك السمـ | حةِ شيباً بعد النوى وشبابا
وسجدنا نقبلُ الحجر الأسـ | ود والرمل والحصى والترابا

هذه دارُنا فياوحشة الدا | ر إذا لم تستقبل الغيّابا
لاتسل أين أهلُها ، فالخيام السـ | ـود شقّت صدر الليالي انتحابا
حسبوا اللاجئين في كل قطر | — وهمُ بين أهلهم — أغرابا
تاجروا باسمنا وباسم فلسطيـ | ن فكانوا العداة والأصحابا
ثم قالوا : خان البلادَ بنوها | كذبوا . . إننا أعزّ جنابا
نحن من نضّر العروبة في الدنـ | ـيا فرفّت على الورى أطيابا
هذه دارنا جبلنا ثراها | بالدم الحرّ فاستحال مَلابا
إننا وحدنا فدينا حماها | وحمينا حدودها أحقابا
وسرى حبها مع الدم ناراً | وبذلنا لها النفوس احتسابا

نحن من عطّر الميادين أمجا | داً وأعيى المستعمرين طِلابا
ونزعنا للظلم ظفراً فظفراً | وحطمنا للوحش ناباً فنابا
يوم كنّا نُصارع البغي والعدو | وانَ كانوا للأجنبي ذُنابى
ورفعنا بيضَ الجباه صِباحاً | ورأينا جباههم أعتابا

هتفوا للوغى ولما التقينا حاربونا وحالفوا الانتدابا
ثم راحوا يدللون علينا يوم صرنا بفضلهم أسلابا
سجنوا اللاجئين لمّا رأوهم لا يزالون يطلبون الحسابا
ظلموهم، فكيف يُغفون يوماً وفلسطين تقرع الأبوابا

ويقول أيضاً في تمجيد نضال الشعب العربي الفلسطيني [1] :

هذه الحرية الحمراء ما عرفت إلا فلسطين مَراحا
وتقلَّبنا على نيرانها وصهرناها قلوباً وصفاحا
رقص النور على ملعبها والهوى غنّى لها والسفح باحا
بكت الأحرار في أوطانها كيف لا نبكي حمانا المستباحا
شرَّدوا أهلي وصحبي فعلى كلِّ درب شبح النكبة لاحا
خيَّم الظلم على داراتهم فكأن الظلم لا يبغي براحا
عصف الليل بأنوارهم وتوارى النجم والفجر أشاحا
الخيام السود تبكيهم فهل تسألون اليومَ عن أهلي الرياحا
دمُهم سال على كل ثرى أتُرى يصبح ريحاناً وراحا
خضَّبوا آمالهم وانطلقوا يلهبون الكون ثاراً وطماحا
ناحت الأرضُ على أربابها أين من يسمع من أرضي النواحا

وعندما تمت الوحدة بين مصر وسورية ذكر أبو سلمى جراح

---

(١) – أغنيات بلادي : ص ١١٣ – ١١٥

فلسطين وقد مرَّ على التقسيم عشر سنين[1] :

يارفاقي جبل النار دعانا   الهوى هذا الذي هب هوانا
والنسمات التي مرَّت بنا   حملت من أرض «حطين» شذانا
وعلى كل طريقٍ عَبق   من صبانا وشُعاع من دمانا
وإذا ما لفظت أهلي الرّبا   هتفت من خَلَل الدمع رُبانا
أي سفح لم يَسر فيه لظى   من فلسطين ولم يعرف سرانا
أي شعب خفقت أعلامه   حرةً إلا على دامي خطانا

باسم أطفال بلادي زحفوا   في الدروب الحمر ذلاً وهوانا
بالضحايا كتبوا تاريخنا   بالخيام السود تبكيهم زمانا
باسم أهلي في بقايا وطني   باسمهم في طرق البؤس حزانى
باسمهم في كل أرض مثلوا   شاهداً قد صبّه الظلم عيانا
واسمهم يهدر في شعري دماً   ودموعاً وسعيراً ودخانا
باسمهم نُقسم ألاّ نلتقي   في غد إلا على طُهر ثرانا

يافلسطين مضت عشر وفي   كل يوم يسمع الدهر ندانا
وأتينا واللظى يحرقنا   عرباً قلباً ووجهاً ولسانا

ياأحبايَ مضت عشر ولم   تلثم الُترب المفدَّى شفتانا

---

(۱) ـ أغنيات بلادي : ص ٦٧ ـ ٧١

وشظايانا اللواتي وحّدت بين أهلينا ولم يبق سوانا
لن تتم الوحدة الكبرى إذا لمَ يلحْ في الوحدة الكبرى حمانا

— ١٦ —

ولشاعر النكبة يوسف الخطيب صرخات متمردة ، يثور فيها على استكانة الشعوب في الشرق وخضوعها الذليل للقوة[1] :

ألرعاع المسكين في الشرق ينقا د أمام القوي كيف يشاءُ
يستوي عنده المدجّل والها دم ، ما نبتنيه والبناء
يارياح الجحيم هُبي علينـا والفحينا ، فإننـا جبناء
تشتكي الأرض من روائح قتلا نا عليها ، ويشمئز الهــواء
كلّ شبر والذلّ يصرخ فيه وسياط الغربي والأشلاء
كالقطيع الذي يُساق إلى المـذ بح رغمـاً وكله استخذاء
كالقطيع الذي يُساق مع الغر ب وطوراً يسوقه الزعماء
أين « بترولنا » أُحرق فيـه ليعيش الأسياد والأمراء
أتمنى لو كنت عود ثقابٍ في حقول البترول يوماً يُضاء
أتمنى للشرق يغدو رماداً من لهيبي وتُحرق الصحراءُ !

---

(١) ـ العيون الظماء للنور : ص ٤٢ ـ ٤٤

ويوسف الخطيب هو الذي يحكي لنا حكاية هذا اللاجيء :[1]

يقولون : كان فتى لاجئاً إلى خيمة في الرُبا مُشرعهْ
تُطل بعيداً وراء الحدود على الجنة الخصبة الممرعهْ
وكانت له ذكريات هناك مجنّحةٌ حلوة ممتعه
وملهى صِبا شاعريّ الدروب وكوخ يطل على مزرعه
وكم أرَّقت ناظريه الطيوف وطيف الرقاد جفا مخدعه
يعيش على حلم أمس الذي تولى ويُقسم أن يُرجعه
يقولون : كان يُرجِّي المماتَ إلى يوم ثأرٍ ، إلى موقعه
وكان نداءٌ ، وكان نفيرٌ وأسلم لله ما أودعه
تقحّم هول الردى راسخاً كما يرتمي النسر في الزوبعه
فلو ضيغم مرّ من قربه تمنى لو ان له مصرعه
ويروون : لاألمٌ هاجه ولا الجرح في قلبه أوجعه
سوى أن عينيه قد غامتا وأسبلتا في الثرى أدمعه
أيبكي على وطنٍ ضائع قضى قبل أن يجتلي أربعه
أيبكي حبيباً له في الخيام قُبيل الرحيل ، وما ودّعه !
يقولون : لمّا هوى مثخناً وشدّ على جرحه أضلعه
وأوشك يخبو السراج ، سوى ثوانٍ ضبابيةٍ مسرعه
تلفّت ملءَ الربا والوهاد يحدّق في وطن ضيّعه

(١) ـ عائدون : ص ٧٨ ـ ٨١

وأغرز كفيه في حفنتي تراب ، تكونان ذكرى معه !

- ١٧ -

ولشاعر العودة هارون هاشم رشيد شعر كثير يموج بالحماسة والعزيمة والإيمان بالنصر والعودة[1] :

أخي في الخيمة السوداء في الكهفِ
أخي في الجوع في التشريد في الخوف
أخي في الحزن في الآلام في الضعف
أخوك أنا برغم الظلم والإرهاق والعسف

أخي من نحن إن سرنا على الدنيا بلا وطنِ
وإن عشنا على صدقات قاتلنا ، على المنن
وإن جار على الأقداس عسف الظالم النتن
وإن لم ننتفض للثأر رغم البؤس والمحن

أخي لن يغمض الجفن على حق ولاثارِ
ولا لن ترجع الأرض بغير الدم والنار

---

(١) ـ عودة الغرباء : ص ٨٠ - ٨١

هناك بوثبة تعصف من دارك أو داري
هناك غداً سنشعلها ونمحو لطخة العار

ولم يفقد شاعر العودة إيمانه بالثأر والنصر ، على الرغم من احتلال اليهود لمدينته المرابطة في خط النار (غزة) أثناء العدوان الثلاثي ، وفي قصيدته (إرفع يديك) يرسم الشاعر صورة رهيبة للعسف الصهيوني إبان الاحتلال ، فقد كان اليهود يوقفون الرجال والنساء في غزة رافعي الأيدي إلى الجدران ويطلقون عليهم النار [1]:

ارفع يديك ! وصوّبوا ظلماً بنادقهم إليّ
ارفع يديك ! وكاد ـ يا أقدار ـ أنْ يُغمى عليّ
ارفع يديك ! وددتُ لو قطعوا يديّ

ووقفت في عينيّ نار واشتعالْ
وشريط أحداث تمرّ وذكريات في اتصال
بلدي يدنسه اليهود! أهذه عُقبى النضال
عُقبى المرابطة الطويلة في الخنادق والتلال
بعد الخيام الباليات وبعد أعوامٍ طوالْ !

واسودَّت الدنيا ومازالت يدايَ إلى الجدارْ

(١) ـ غزة في خط النار : ص ٤٦ ـ ٤٨

والمجرمون يصوبون لنا بنادق الاحتقارْ
وأنا وصحبي في انتظارْ
طلقاتِ نارْ ... تمضي بنا .. طلقات نارْ

ومشوا ومازال الجدارْ ..
باقٍ يحدّق في انتظارْ ..
بركان نار .. ولهيب ثارْ ..

وعندما أعلنت الوحدة بين سورية ومصر كانت فرحة شاعر العودة طاغية وهو يرى جماهير اللاجئين تزحف من الخيام والكهوف تاركة بؤسها وآلامها، لتغني نشيد الوحدة وتباركها[1] :

يا إخوتي المشردين في الظلامْ التائهين الضاربين في القتامْ
الهائمين في الدروبْ السابحين في الندوبْ
ألا ابشروا .. ألا ابشروا بالعودةِ وهللوا وكبروا للوحدة
يا إخوتي
يا إخوتي غداً ستنهار الحدود وسوف لا يكون في بلادنا يهود
وسوف يشرق الضياءْ على مرابع الفداءْ
فأبشروا واستبشروا بالعودة وهللوا وكبروا للوحدةِ
يا إخوتي

---

(١) - أرض الثورات : ص ١٠٢ - ١٠٥

ياإخوتي في فرحة العمر التي تزورنا قد أورقت وأينعت واستبشرت صدورنا

بعد السنين العابساتْ بعد الليالي الحالكات

فأبشروا واستبشروا بالعودة وهللوا وكبّروا للوحدة

ياإخوتي

- ١٨ -

ومن الشعراء الذي وقفوا شعرهم على العودة الشاعر علي هاشم رشيد شقيق الشاعر هارون هاشم رشيد ،وفي ديوانه (أغاني العودة) نجد تلك الروح المتوثبة المشتعلة شوقاً إلى الوطن المغصوب ، وها هو ذا صوته يهز النيام ويدعوهم الى المعركة[1]:

أخي والرياح تهز الخيامْ أخي والجباه كساها الرغامْ

أخي والظلام تلاه الظلام ألا فاسمعوا صرختي يانيام

إلام المنام إلام المنام !

أخي هزنا الشوق للموطنِ ونحن نعيش بلا مسكنِ

تحامل على جسمك المثخن تقدم تقدم ولاتنثن

وصح يانيام إلام المنام !

---

(١) — أغاني العودة : ص ٢٧ — ٣٠

أخي لا يَرُعْك عواء الذئابْ فهل يرهب الليث نبح الكلابْ
أخي وليكن لك ظفرٌ ونابْ وجالد به وقع تلك الحراب
إذا ما سمعت إلام المنامْ !

أخي إن صلَتْكَ رمال الفلاهْ تذكر فلسطين مهد الأباهْ
ووجه إليها قبيل الصلاه صلاة تطهر تلك الجباه
وقل يا بلادي إليك السلام

فلسطين إنك روح ودمْ فلسطين إنك نبع الشممْ
عرفنا بأرضك طعم الكرم فلن نخفر اليوم تلك الذمم
فإن الكريم يعاف الملام

-١٩-

أما عيسى الناعوري فهو من شعراء النكبة الذين بكوا مأساة بلادهم بفورة ملتاعة من دم قلوبهم ، وصبوا في قصائدهم لهيب النقمة والثورة في أعقاب الكارثة ، وهذه « صرخة أسى » مريرة يرسلها الناعوري بعد الهدنة عام ١٩٤٩[1] :

سقطت يضرجها النجيع على الثرى ومضت كحلمٍ كان في الأحلامِ

(١) ـ أناشيدي . ص ٦٥ – ٦٨

وتمزّقت بيد الخيانة والخنا أعلامُها الغراء وهي دوامي
وتفرقت عنها الصحابُ وأغمدت فيها السيوف وهنّ بعدُ ظوامي
أعراسها انقلبت مآتم مُرّةً دميت بهنّ حناجر الأيام
وقبابها . . لله ما لقبابها عاد الشموخ بها ذليلَ الهام
صوت الأذان أبحّ والأجراس ما عادت ترنّ كعهدها من عام
ضاعت فلسطين الشهيدة وانطوت واحسرتاه لعهدها البسّام
قد سلّمتها لليهود عصابةٌ رعديدة برئت من الاسلام
عاث الغريب بها وشُرّد أهلها فتفرقوا في الأرض كالأغنام
يا للمذلة ! لم يعد في أمتي رجلٌ لأعراض العروبة حام

وفي عام ١٩٥٣ كانت نقمة الشاعر لا تزال مستعرة، فإذا سمع من حوله يتحدثون عن وعي الشعب العربي وتأهبه للثأر والعودة، أرسل صوته الساخر من أحلامهم(١):

حلمٌ ! وما أكثر أحلامَنا سئمت من تكرار أمثالهِ
حلمٌ لقاءُ المجد من بعدما وقّع شعبي صكّ إذلالهِ
في ساحة كان لنا نصرها فحوّلوه للعدا صاغرينْ
وغادروا الساحة لا عودة تُرجى، ولا ثأر، ولا هم يحزنونْ

دعني من الأحلام يا صاحبي وأملِ الثارات والنصرِ

---

(١) ـ أناشيدي: ص ٥٧ ـ ٥٩

فليس في قومي ذو عزّةٍ تدفعه العزّةُ للثـأرِ
قادتنـا ثاراتهم بينهم ليس لهم عند العدا ثارُ
فإن دعا المجد لساحاته كلّهم يوم الوغى العارُ

هم كلهم أذناب مستعمر عبّاد كرسيٍ ودولارِ
من أجلها ضحوا بأوطاننا وشرّدوا أمة أحرارِ
سادةُ ذلٍّ طالما صفّقت أكفّنا مكبرةً ذلّهمْ
باعوا إلى الشيطان أرواحهم ونحن بعنا نبلنا قبلهم

نحن ! ومن نحن ! سوامٌ فما ندرك معنى العزّةِ الساميهْ
نثغو لراعينا وجزّارنا بنغمة واحدة راضيهْ
الوعي، وعي الشعب كذب فما في شعبنا وعيٌ وأحرارُ
نمجّد الطاغي ونعنو إذا ما ساقنا للذلّ سمسارُ

ستة أعوامٍ تقضّت على مأساتنا الكبرى وتشريدنا
لا اللدّ والرملة قد عادتا لتسمعا وقع أغاريدنا
ولا ضواحي القدس عادت لنا والكرمل العالي وعكاءُ
وشط يافا لم يعد عهده فما يحيّينا به الماءُ

خيامنا تملأ رحب الفضاء وقوتنا لقمةُ إحسانِ
أذلةٌ نحن ، وأوطاننا يمرح فيها خصمنا الجاني

دعني من الأحلام يا صاحبي وأمل العودة للدارِ
ما دام يرعى أمرنا قادةٌ تعشق قيد الذلّ والعارِ

-٢٠-

وحسن البحيري من الشعراء الذين عاصروا النكبة في دوريها ، وقالوا في كل حدث من أحداثها،وها هو ذا قبل التقسيم يعاهد تربة فلسطين أن يسقيها من دمائه(١) :

أيا وطني ، والعلا من أسى إذا ذكروك لها تُطرقُ
ترابك..هذا التراب الطهور وفي روحه عطشٌ مزهق
سأسقيه من نفثات اللهيب وفيض الدماء حياً يُغدق
لأنبت حريّتي في ثراك وأجعل أدواحها تُورق
فتزهر فيك غصون السلام ويبسم في ظلها الزنبق

فلما تمّ التقسيم ودوّى الرصاص في الأرض المقدسة انطلق صوت الشاعر يهيب بكل عربي أن يخوض المعركة :

أخي اسمعْ نداءً لهيف الصدى ترامى على خطرات المدى
فكاد يهز روابي الجبال وقد مسها مُغوراً منجدا

(١) ـ المختارات من شعر البحيري نقلتها من مخطوطاته التي تفضل مشكوراً بإعارتي إياها .

هو الغوث من أسبق القبلتين دعاني وإياك مستنجدا
فقم بالسلاح نسر للكفاح فأكرم بساح الوغى موردا
لنا النصر لا لفلول العدا ضمنًا له يومنا والغدا
فنحن بني العُرب من أمةٍ مؤثلة في العلا محتدا
ونحن على ذروة الخافقين وطئنا بأقدامنا الفرقدا

أخي قبلة القدس لو أنصفت لرحنا لها ركعاً سجّدا
وطفنا بصخرتها كالحطيم لنستلم الحجر الأسعدا
فآفاقها أطلعت في الزمان بدور التقى وشموس الهدى
وتربتها أنبتت للأنام فروع الجدا وأصول الندى
فلسطين فى الدهر أم الجهاد وبنت الجلاد وأخت الفدا
ولولا بنوها لنام الكفاح وما مد يوماً لنصرٍ يدا
فهم أيقظوا الشرق من غفوة مضى في كراها مدى سرمدا
وهم جمعوا العُرب في وحدة تلمُّ من الشمل ما بُددا

أخي قم بنا مثل حد الحسام إذا هو من غمده جُرّدا
فتلّ أبيب لنا موعدٌ ولن نرتضي غيرها موعدا
فهُب كليث الشرى واثباً فلم يبق فينا لصبر شدا
ألا امضِ بنا مثل نسر السحاب وحوتِ العباب وريح الوَدَى
على طائرات تروع النجوم وفى دارعاتٍ تخيف الردى

لنهدمها حجرةً حجرةً ونتركها صفصفاً فدفدا . .

فلما انتهت المسرحية الحربية بما شاءت لها الخيانة أن تنتهي صرخ الشاعر من أعماق فؤاده :

إلهي زُلزل الحقّ وناء فؤاده المُجْهَدْ
وكادت ناره تخبو ، وكادت ريحه تخمد
وكادت كفّ اسرائيل تمحو ما بنى أحمد
فإن لم يُصرع الباطل إزهاقاً ولم يُلحد
وظل البغي في دنياك ينضو سيفه المغمد
فبعد اليوم لن تُرجى ، وبعد اليوم لن تُقصد
وبعد اليوم لن تُخشى ، وبعد اليوم لن تُعبد
وبعد اليوم لن يُركع إسلاماً ولن يُسجد !

والشاعر البحيري هو اليوم « لاجىء » في دمشق ، يتابع إنشاد ألحانه الباكية على وطنه السليب ، فإذا ثار في قلبه الحنين إلى دياره صوّره في مثل هذه المناجاة الهامسة بين حمامتين :

سألت ذاتُ حنين أختها والدجى يعقد أجفان الوسنْ
وصدى النجوى على أفق الربا يزفر اللهفة في ليل الشجن :
أخت ماسرّ الشذى من زنبقٍ حيّر الأدمع في جفن الزمن
فأجابتها بلحنٍ شاردٍ رنَّ فاهتزَّ له عِطف الفنن :
ياابنة الأيك ويا أخت الشجى أرَجُ الزنبق أنفاس الوطن !

- ٢١ -

وهذا محمود الحوت ، أحد شعراء النكبة ، يحن إلى يافا والمدن المغصوبة الأخرى ، ويشكو أحزانه إلى الله[١] :

يافا ، لقد جفّ دمعي فانتحبت دماً	متى أراك وهل في العمر من أمدِ
أمسي وأصبح ، والذكرى مجدّدة	محمولةٌ في طوايا النفس للأبد
كيف الشقيقات ُ! واشوقي لها مدناً	كأنها قطع من جنة الخُلدِ
ما حالها اليومَ يا يافا ، وهل نعمت	من بعد أن سُلّمت أمساً يداً بيد
وكيف من قد تبقّى في مرابعها	وقد تركناه فيها ترك مُلتَحَد !
ما بالُ قلبي إذا ما سرتُ من بلدِ	يصيح من وجده في الصدر وا بلدي
مهما استقام له من عيشة رَغَدِ	وجدتهُ هازئاً بالعيشة الرغد
تعبت لكنني ما زلتُ في تعبي	أشكو إلى الله لا أشكو إلى أحد !

- ٢٢ -

وفي عيني إحدى اللاجئات قرأ الشاعر الفلسطيني كمال ناصر أسطورة الضياع[٢] :

عيناكِ خيمتان ترويان	أسطورة الضياع في الزمانِ

---

(١) - المهزلة العربية : ص ٣٠

(٢) - جراح تغني : ص ٦٨ - ٧٠

وتعمقان في دجى الحرمانِ وتُصلبان في ذرى المكان
على أديم الهجر والنسيانِ !

عيناك خيمتان للعذابِ تطل منهما رؤى المصابِ
جريمة التاريخ والأحقاب وغفلة الأصحاب والأحباب
في موكب النزال والغلابِ

عيناك خيمتان للصراعِ مغموستان في دمِ الجياعِ
لحن كئيب موحش الإيقاع تعزفه قيثارةُ الأوجاع
تروي لنا أسطورة الضياع

وأنتِ ياصاحبة العيونِ في غمرة الأشجان إن تكوني
لاجئةً .. ظلي على يقيني يالعنةً سوداء في جبيني
ودمعةً للحقد في جفوني الخيمتان بعض ما يُشقيني
في وجهك المؤرّق الحزينِ إذ تصرخان للربا : ارجعوني
للشاطىء المعذّب الطعين لحُلمٍ شاخ على ظنوني !!

— ٢٣ —

وللشاعرة الفلسطينية المجدّدة سلمى الخضراء الجيّوسي قصيدة أسمتها « الشهيد المهجور » رسمت فيها صورة رهيبة للقبر الكبير فوق تل قرية (ديرياسين) الذي دُفن فيه القتلى دفناً جماعياً ، بعد أن ذبح

اليهود أهل القرية سنة ١٩٤٧ في مجزرة وحشية لم ينج منها إلا القليلون[1] :

رعته الشمسُ والأنداء وارتاحت على كبرٍ بقاياهُ
ونامت دون يوم الحزن عيناهُ
وكنا يوم بعناهُ
ـ لريح الغرب تلفح رأسه العاري
لوقد الشمس تحرقه
وتُغرقه
بموج لهيبها الناري
لغربان السماء السود تدفن جوعها فيهِ
لديدان الثرى القاسي تُعرّيهِ ـ
فلولَ الجحفل الوهميّ في صرحٍ هدمناه

. . .

ألن ترتاح في قبرٍ بقايا النائم العُريانْ ؟
بقايا الهيكل المهجور في الوديانْ
في دوامة الأرياح ؟
ألن ترتاح في قبرٍ بقاياهُ
لقد صُنّاه في أكفان ماضينا

---

(١) ـ العودة من النبع الحالم : ص ٦٨ ـ ٧٤ .

لقد بعناه : لا أجرٌ ولا أرباحْ
يوم تجارةِ الأرواح
عكاظُ الروع عن دنياه يُلهينا

. . .

سرى من « حفرة القتلى على تلٍ ثكلناه »
نداءٌ حام في الأجواءْ
فوق مدافنِ الأحياء
ينادينا
ينادي الموتَ ، ذاك السارق المعطاءْ
أن ينزح عن مرقى أمانينا
فإنا قد بلوناهُ
رضعنا سكره النعسان
وذقناسمّه الأصفر إذ ينـدى على الأجفانْ
وإذ يغتال نجم الشوق غَيلاً من ليالينا
فياغول الليالي السود ، ياديجورها السكرانْ
رعاك الموت في واديه .. عرّج دون وادينا !

. . .

تُدوِّم لجّة الأصداء تحت السمع والبصرِ
تهزّ العدم المرتاح في أرجوحة القدرِ

لتوقظ في حنايانا

شموس الغيب والأنواءْ

لتنشل روح موتانا

من الغيبوبة الصفراءْ

وتنفض شوقنا ناراً وطوفانا

برغم الموت .. والأغلال .. والسلِّ

لنحفر دربنا القاسي إلى « كهفٍ على التلِّ »

نلمُّ عظام موتانا !

- ٢٤ -

وللشاعرة السيدة عزيزة هارون هـذه اللوحة التي تصور فيها أماً (فلسطينية نازحة وولدها)[1] :

لا وحق الحب لن أخلف عهدا

وحنيني رفّ ريحاناً وودا

أنا للثأر وللطفل المفدّى

فارسي في حومة الحرب تردّى

إنه للغمرة الحمراء يُهدى

---

(١) – مجلة الآداب : العدد ٥ ، السنة ٤ ، مايو ١٩٥٦

ولدي بين اليتامى وغداً يشتد زندا
قال يوماً لرفاق الصف : إني أتحدى !
إن أمي صقلتني وأعدّتني فرندا
أنا للثأر ولن أخلف عهدا
ألف بركان بقلبي ليس يهدا
إنما الظالم في الدار استبدا
أنا لاأعرف يافا بلدتي ، بالروح تُفدى
إنها في قلب أمي عبقت طيباً وندّا
وهيام في مداه الطلق لايعرف حدا
وهي في مقلة أمي بحنان الحب تندى
واجبي ياأم بالروح يُؤدّى
عربي كأبي أقتحم الساحات فردا ..

- ٢٥ -

عندما استغاثت فلسطين ودعا الداعي إلى الجهاد كان الشاعر الأستاذ عمر بهاء الأميري في جملة من لبوا النداء وانضموا إلى جيش الإنقاذ ، ليردوا العدوان على الأرض المقدسة [1] :

يافلسطين ياتراث النبوّهْ يالسان المجد الأثيل المفوّهْ

---

(١) — المختارات من شعر الأميري نقلتها من بعض دواوينه المخطوطة التي تكرّم بإطلاعي عليها .

لا يضرك العدوان مهما تمادى إن هذا العدوان مبعث قوه
أمة الُعرب في ركابك هبّت تلقم العاتي الزنيم عتوه
والأباة الكماة تهتز ثأراً كلما معرج الرسول تأوه
فافقئي البغي في عيون ذويه سوف يحميك يعربيٌّ المروه

وقد أتيح للشاعر السوري المجاهد أن يشهد بعينه طرفاً من أهوال النكبة بعد انسحاب الجيش العربي الغادر وتشرد الفلسطينيين أمام زحف اليهود :

الشيوخ الفانون عضوا بقايا من جراح الجهاد هاجت ضراما
ورجال الكفاح ثاروا غضاباً عزّلاً يطلبون موتاً زؤاما
والصغار الباكون غصوا بمزج الد م والدمع ثم ماتوا يتامى
في فلسطين يالقومي رزايا هل عمينا عن ذاك أم نتعامى
والحكومات وهي سبع عجاف قد أعدت للذود عنها .. كلاما !

— ٢٦ —

« قصة راشيل شوارزنبرغ » قصيدة جميلة للشاعر نزار قباني ، كتبها للأجيال المقبلة وأعلن فيها الثورة على الجيل الذي أسهم في ضياع فلسطين [١] :

أكتبُ للصغارْ

---

(١) — قصائد من نزار قباني : ص ١٧٨ — ١٨٧

للعرب الصغار حيث يوجدونْ
لهم على اختلاف اللون والأعمار والعيونْ
أكتب للذين سوف يولدون
لهم أنا أكتبُ للصغارْ
لأعينٍ يركض في أحداقها النهارْ
أكتب باختصارْ
قصة إرهابية مجنّدهْ
يدعونها « راشيل »
قضت سنين الحرب في زنزانةٍ منفردهْ
كالجُرْذ .. في زنزانةٍ منفردهْ ..
شيّدها الألمان في براغْ
كان أبوها قذراً من أقذر اليهودْ ..
يزوِّر النقودْ ..
وهْي تدير منزلاً للفحش في براغْ
يقصده الجنودْ ..
وآلت الحربُ إلى ختامْ
وأُعلن السلامْ
ووقّع الكبارْ
أربعةٌ يلقبون نفسهم كبارْ

صكّ وجود الأمم المتحدهْ
.. وأبحرت من شرق أوربا مع الصباحْ
سفينةٌ تلعنها الرياحْ
وجهتها الجنوبْ
تغص بالجرذان والطاعون واليهودْ
كانوا خليطاً من سقاطة الشعوبْ
من غرب بولندا ،
من النمسا ،
من استمبولَ .. من براغْ
من آخر الأرض .. من السعيرْ
جاءوا إلى موطننا الصغيرْ
موطننا المسالم الصغيرْ
فلطّخوا ترابنا
وأعدموا نساءنا
ويتّموا أطفالنا
ولا تزالُ الأمم المتحده ..
ولم يزل ميثاقها الخطيرْ
يبحث في حرية الشعوبْ
وحق تقرير المصيرْ

والمُثل المجرّده ..
فليذكر الصغارْ
العربُ الصغار حيث يوجدونْ
من ولدوا منهم ومن سيولدونْ
قصة إرهابيةٍ مجندهْ
يدعونها « راشيل »
حلّت محلّ أميَ الممّددهْ
في أرض بيّارتنا الخضراء في الخليلْ
أمي أنا الذبيحة المستشهده
وليذكر الصغار
حكايةَ الأرض التي ضيّعها الكبار
والأممُ المتحده ..

. . .

أكتب للصغارْ
قصةَ بئر السبع ، واللطرون ، والجليلْ
وأختيَ القتيل
هناك ، في بيّارة الليمون ، أختيَ القتيلْ
هل يذكر الليمونُ في الرملة، في اللدّ ،وفي الخليلْ
أختي التي علّقها اليهود في الأصيلْ

من شعرها الطويلْ
أختي أنا نُوارْ ..
أختي أنا الهتيكة الإزارْ
على رُبا الرملة والجليلْ
أختي التي ما زال جرحها الطليلْ
ما زال بانتظارْ
نهارَ ثارٍ واحداً ، نهارَ ثارْ
على يد الصغارْ
جيلٍ فدائيٍ من الصغـارْ
يعرفُ عن نُوارْ ..
وشعرِها الطويلْ ..
وقبرها الضائعِ في القفارْ ..
اكثرَ مما يعرف الكبار !

. . .

أكتب للصغارْ
أكتبُ عن يافا وعن مرفئها القديم
عن بقعةٍ غاليةِ الحجارْ
يضيء برتقالهُا كخيمةِ النجومْ
تضم قبر والدي وإخوتي الصغار

هل تعرفون والدي وإخوتي الصغارْ ؟
إذْ كان في يافا لنا حديقة ودارْ ..
يلفّها النعيمْ
وكان والدي الرحيمْ
مزارعاً شيخاً ، يحب الشمس والترابْ
واللهَ .. والزيتونَ والكرومْ ..
كان يحب زوجهُ
وبيتَــــهُ
والشجرَ المثقلَ بالنجومْ
.. وجاء أغرابٌ مع الغيابْ
من شرق أوربا .. ومن غياهب السجونْ
جاءوا كفوجٍ جائع من الذئابْ
فأتلفوا الثمارْ
وكسّروا الغصونْ
وأشعلوا النيران في بيادر النجومْ
والخمسةُ الأطفالُ في وجومْ
والليلُ في وجومْ
واشتعلت في والدي كرامةُ الترابْ
فصاح فيهم : اذهبوا إلى الجحيمْ

لن تسلبوا أرضيَ يا سلالةَ الكلابْ !
.. ومات والدي الرحيمْ
بطلقة سددها كلبٌ من الكلابْ
عليه ، مات والدي العظيمْ
في الموطن العظيمْ
وكفُّه مشدودةٌ شداً إلى الترابْ
فليذكر الصغارْ
العربُ الصغارْ حيث يوجدونْ
من وُلدوا منهم ومن سيولدونْ
ما قيمةُ الترابْ
لأنَّ في انتظارهمْ
معركةَ الترابْ ! ..

-٢٧-

للشاعر المهندس على محمود طه قصيدة حماسية يهيب فيها بكل فتى عربي أن يحمل السلاح ويخوض المعركة لإنقاذ الأرض المقدسة[1] :

أخي جاوز الظالمون المدى فحقَّ الجهاد وحق الفدى

---

(١) ـ الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث : ص ١٠٣ — ١٠٤

أنتركهم يغصبون العروبـ ـة مجد الأبوّة والسؤددا

وليسوا بغير صليل السيوف يجيبون صوتاً لنا أو صدى

فجرّد حسامك من غمده فليس له بعدُ أن يُغمدا

أخي أيها العربي الأبيّ أرى اليوم موعدنا لا الغدا

أخي أقبل الشرق في أمة تردّ الضلال وتحيي الهدى

أخي إنّ في القدس أختاً لنا أعد لها الذابحون المُدى

صبرنا على غدرهم قادرين وكنا لهم قدراً مرصدا

طلعنا عليهم طلوع المنون فطاروا هباءً وطاروا سُدى

أخي قم إلى قبلة المشرقين لنحمي الكنيسة والمسجدا

يسوع الشهيد على أرضها يعانق في جيشه أحمدا

أخي إن جرى في ثراها دمي وأطبقتُ فوق حصاها اليدا

ففتش على مهجةٍ حرة أبت أن يمر عليها العدا

وقبّل شهيداً على أرضها دعا باسمها الله واستُشهدا

فلسطين يفدي حماك الشباب وجل الفدائي والمفتدى

فلسطين تحميك منا الصدور فإما الحياة وإمّا الردى

-٢٨-

وللدكتور أحمد زكي أبي شادي قصيدة سماها (اللاجئون) تحدث

فيها عام ١٩٤٩ عن نكبة المشردين ودعا العرب إلى بذل التضحيات لهم[1] :

خُرس فمن عن ويلهم يتكلّمُ ؟ ومعذّبون لهم تُقام جهنّمُ
جنتِ السياسه مثلما جنت الوغى والظالمون الغاشمون عليهمُ
وتشّردوا لايملكون وجودهم لو كان يُمتلك الوجود المبهمُ
ضاعت معاقلهم ، وضاعت قبلها أمم ، وهان معزّز ومنعّم
ليس المقام مقام لومٍ شاملٍ ولعل أول من يُلام اللوّم
إن المقام مقام نبلٍ سابغٍ حتى يُغاث من الفناء المعدَم
إن المصيبة لامثيل لرزئها فيما روى التاريخ أو ما يُعلم
والناسُ .. ما للناس لم يتأثروا والأهل .. ما للأهل لم يتندّموا
إن الكوارث مفصحات حولهم تتطلّب الإنجاد حين تلعثموا
هذا أوان التضحيات فما لهم ضنوا بأوهى الواجبات وأحجموا
المال مهما جلّ ليس ضريبة تُؤبى إذا ماهان للحرّ الدم
وإذا تخاذلت الشعوبُ وأنكرت من هم عماد حياتها لو تفهم
فمن المحال لها ، وذلك حالها بعثٌ ، ولو عاد النبي الملهم !

-٢٩-

وللشاعر المهجري الكبير رشيد سليم الخوري « الشاعر القروي»

---

(١) ـ من السماء : ص ١٥٤

قصيدة طويلة يسخر فيها من وعد بلفور ويدعو العرب إلى الاستعداد للمعركة ، نقتطف منها[1] :

الحق منك ومن وعودك أكبرُ ... فاحسب حسابَ الحق يا متجبّرُ
تعد الوعود وتقتضي إنجازها ... مهج العباد خسئت يا مستعمر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن ... من جيب غيرك محسناً يا بُلفر
تجني على وطن المسيح مدمّراً ... وتذيع أنك في البلاد معمّر
هُنّا عليك لطيبة عربية ... خلناك مبتسماً وأنت مكشّر
يا عُرب والثارات قد خُلقت لكم ... اليومَ تفتخر العلا أن تثأروا
يدعوك شعبك يا صلاح الدين قم ... تأبى المروءة أن تنام ويسهروا
نسي الصليبيون ما علّمتهم ... قبل الرحيل فعُد إليهم يذكروا
ريكاردسٌ أدرى بسيفك منهم ... فليسألوه لعله لا يُنكر!

وعندما احتفلت جمعية الشبيبة العربية الفلسطينية في سان باولو عام ١٩٣٥ بذكرى بعض شهداء فلسطين أنشد الشاعر القروي[2] :

ما لهذا الشرق لا يبرح في ... نكبات من علوج الغرب سود
أشهيداً علّقوا أم جرساً ... رنّ فاهتز له قلب الوجود
وسرت ألحانه مطربةً ... حول عرش الله أرواحَ الجدود
نحن قوم فتنتنا مُثُلٌ ... ما لنفس الحرّ عنها من محيد

---

(١) — الأعاصير : ص ٧٢ - ٨١ .
(٢) — » : ص ١١٣ - ١١٤ .

كلما استشهد منا بطل هتف الأجداد أهلا بالحفيد !

وفي ثورة ١٩٣٩ تشتد حملة الشاعر على الإرهاب الانكليزي في فلسطين ويعلن أن الغرب لا يفهم غير منطق القوة [1] :

من إِعرض الحقائقِ من أخاديع فاسقِ
سارقٍ يدّري به نصفُ مليون سارقِ
في فلسطين آية للرسول المنافق
سُجلت في صحائف من قتام الحرائق
وتلتهنّ للورى فُوّهات البنادق
ورو تهن ألسن من حبال المشانق !
يالئاماً بعهدهم لم يقم عذر واثق
كلكم جِد آفكٍ كذّبونا بصادق !
كم نشدنا سلامكم بأحب الطرائق
فأبيتم سوى الأذى للحليف المصادق
منطق الغرب في التي عُلّقت بالمناطق
فأملأوا الجو وازحفوا كالسيول الدوافق
البواريد سُدّدت لاصطياد اللقالق
قد صرعنا شقيّكم بالأديب الغرانق
وقهرنا كميّكم بالغلام المراهق !

---

(١) — الأعاصير : ص ١١٧ - ١٢٠ .

وعندما هام الفلسطينيون على وجوههم متشرّدين وخلّفوا فلسطين الشهيدة ليسكنها لصوص الشعوب أحسّ الشاعر أحمد فهمي أن الأرض قد زلزلت زلزالها[1] :

و « زلزلت الأرض زلزالها   وأخرجت الأرض أثقالها »
ولاحت على الأفق سحب الجلاء   تثير الحروب وأهوالها
وهامت على وجهها أمةٌ   كأن نزاع الردى غالها
تشرّد أفرادها في البلاد   وراحوا يبثون أحوالها
وضمّت فلسطين من بعد ذاك   لصوص الشعوب وأنذالها

ولكن الشاعر لا يفقد مع ذلك إيمانه بالثورة والنصر والعودة[2] :

حرام علينا لذيذ الرقاد   إذا لم نُبادر إلى الثورةِ
حرام علينا البقاء الكريم   ونحن نعيش على المنّة
حرام علينا الزلال القرا   ح مادام فينا أخو ذلّة
فلسطين شعبك مال الزمان   بآماله الحلوةِ الرحبة
وأجلاه عن أرضه غاصب   لئيم المقاصد والنيّةِ
يسانده الغرب ذاك الذي   هو المصدر الفرد للنكبة

---

(١) — أحلام العودة : ص ٢١

(٢) — « « : ص ٤١ — ٤٣

فلسطين شعبك لما يزل يحنّ لطلعتك السمحةِ
إلى البذلِ ، فالبذل باب النجاح وأجر الشهيد رُبا الجنةِ !

- ٣١ -

كلما أقبل اليوم الخامس عشر من أيار من كل سنة ثار اللاجئون وهاجت في نفوسهم ذكرى سوداء بغيضة ، وها هو ذا الشاعر أمين شنّار يحكي لنا حكاية شهر أيار [١] :

« هل تذكرينْ »
صوتٌ يمزّق هدأة الظلمهْ
ينساب بين دياجر الخيمهْ
قال الصغير مناجياً أمّهْ :
« أمي الحنون!
ماذا - تراه - يثير أيارُ
في اللاجئين فإن أتى ثاروا
في وجهه وكأنه العارُ ؟
من أين نحن ؟ وهل لنا دارُ
- كانت لنا - ورُبا وأزهارُ
وشاطئٌ مرح وأطيار ؟

هل تسمعين ؟
سرٌ بقلبي هذه النجوى
قد كنت أكتمه فلا أقوى
وكيف أكتم في فمي الشكوى؟
كيف ارتحلت وعشت في بلوى؟
ماذا دهى الشجرات والمأوى
حتى غدت نبأً لنا يُروى ؟
أمي الحنون
قال الكبار : وكانت النكبهْ
قالوا : وكم بطلٍ قضى نحبهْ !
قالوا : وإنّ لنا غداً أوبه

(١) - المشعل الخالد : ص ٦٠ - ٦٥

هيا ! أعدّ قواكَ للوثبه
كانوا ... كمن وهب الأسى قلبه
كلٌّ يناشد ضارعاً ربّه !
هل تذكرين؟
أماه عهد هنائنا السالفْ
والبرتقال وظلّه الوارف ؟
كم حدّثوا ! أفيصدق الواصف ؟
أماه ما لفؤادك الواجف
ينساب من خفقاته هاتف ؟
ماذا وراء حنينك اللاهف ؟
ما تكتمين ؟»

. . .

وانهلّت العبرات كالنارِ
تجتاح مسمعه كإعصار
تروي حكاية شهر أيار !

. . .

أمٌ تحدّق في دُجى الخيمهْ
قلبٌ تفتّح ملقياً همّهْ
يحنو على أُذنين في الظلمه :

. . .

«مازلت أذكر أيها الطفل الحبيبْ
يوم الرحيل ..
والشمس تقذف باللهيبْ ،
على الجباه ، ومن بعيد :
الأفق يذخر بالنحيبْ ،
والبوم ينعق ، والوليد
يدعو أباه ، ولا مجيبْ
ظمآن ، والرجل الذليل ،
والتائهون بلا دليل ،
يجتاحهم قلقٌ شديد
درب طويل ..
يُفضي إلى بلد غريب !
مازلت أذكر أيها الطفل الحبيبْ
يافا ، وعهد هنائنا العذب الجميل
أمس القريب ..
كانت تذهّب بيتنا شمسُ الأصيل
مازلت أذكر ذلك البيت السعيد !
كم كنت أمرح طفلةً بين النخيل
وفي الفضا عبق الخزامى والورود

يلقي السلام على الدوالي،والحقول
والطير تنثر شدوها الحلو الطروب..
والشط تنعشه نسيمات الغروب
والبحر يعزف للرُبا أحلى نشيد!
طفلي الحبيب ! :
يافا .. ونأيك عن رباها لن يطول
مادمت تذكر عهدها العذب الجميل !»

. . .

« أمي الحنون »
لحن وعته مسامعُ الليلِ
أغفى تهدهده رؤى الذلِ
والذكريات بمقلة الطفلِ
شوق دفين
ما زال يلهب دمعه الجاري
شوق إلى الشجرات والدار
يجتاحه . . وحديث أيار
ما زال يدفعه إلى الثار ،
ناجاه طيف بلاده الساري
في خيمة نبتت من العار :
« عبر القرون
حدّقْ ! فإن سناء ماضينا
قد عاد يسطع في مآقينا
يمحو الدياجر عن روابينا
قد عاد يسكب في بوادينا
لحنَ الإباء . . هنا ينادينا
أنصت إليه مؤذناً فينا :
ياحائرون !
من للعرين ؟ وأهلُه الصيدُ
هانوا ، وشتَّتهم رعاديدُ
عن أرضهم ، ولشدّ مانودوا
في كل رابية أغاريدُ
تدعوهمُ ، وتردد البيدُ :
هيا انهضوا وإلى الحمى عودوا »

. . .

طفلٌ وأغنيةٌ وأزهارُ
يافا بكت ، وتغنّت الدارُ
عاد الصحابُ ! وعاد أيار !

ونختم هذه المنتخبات بقصيدة للشاعر سليمان العيسى يقص فيها قصة « رسالة مؤرّقة » تلقاها « من لاجئة » في الخامس عشر من أيار سنة ١٩٦٠ ، وفيها تعبير حيّ عن القلق الذي بدأ يجتاح النفس العربية من جديد ، بعد أن طال انتظارها بزوغ الفجر الموعود[١] :

«عائدون ..
عائدون ..
إننا لعائدون .. »

هَدْرٌ يضجُّ بسمعي ونداءُ ... وخُطا تُجرّ وشارع وضّاءُ
ومواكب أَلِفَ الطريقُ ذهابها ... وإيابَها ، والريحُ والضوضاء
والهاتفون حناجر يبس الهوى ... فيها ومات الحب فهي زُقاءُ
كالدوحة انطلقت تمدّ فروعها ... في الأفق ، حين مضى يجفّ الماء
هَدْر يضج .. وفي فؤادي هدأة ... مذبوحة ، وسكينة بلهاء
خرجوا ، وآثرت الفرار بعزلتي ... فالبيت حولي وحشة خرساء
الساحة الكبرى تغصّ رحابُها ... بالأبرياء ، وتعصف الأصداء
سنعود! حنجرة تصيح ، وهتفةٌ ... تمضي مع التصفيق ، فهي هباء
وبلاغةٌ رُصفت خطاباً ساحراً ... وقصيدة ألفاظها حمراء

(١) - رسائل مؤرقة : ص ١١ — ١٨

سنعود !. أسمعها وتُطبق عزلتي ... فوقي وتفغر حوليَ الأشلاءُ

أنا مثلهم ياشاعري عربيةٌ ... لمعت على مأساتها الأسماء

أنا مثلهم ، لكنني — وأقولها — ... عن كل ماصخبوا به صمّاء

خرجوا ، ولُذت بغرفتي ماهزّني ... رعد ، ولا سعرت دمي أنواءُ

لم تختلج قدماي حين تحركوا ... أتلوم يأسي ؟ إنني شلاّء

مضت السنون ، ومرّ ألف مجنّح ... في خاطري ، وتعرّت الأشياء

فإذا القبور كما وعتها محنتي ... ممدودة ، والليل والصحراء

شبح يلوح وومضة مجنونة ... في الأفق تسحق وهجها الظلماء

ومواكب من آملين .. تلفّهم ... في زهوهم دوّامة سوداء

والساحة الكبرى خطيب ساحر ... يطأ النجوم ، ونفحة عصماء

مضت السنون ، وخيمتي ممدودة ... فوقي ، تقهقه حولها الأشلاء

لم تختلج قدمايَ يوماً ، لم أسر ... في موكب ، لم يسبني لألاء

أرأيت كافرةً بكل شعاعةٍ ... مثلي تجود بها عليّ سماء

عفوَ الضياء ... إذا أتتك رسالتي ... وبكل حرف غيمة ربداءُ

اليوم تكتسح البروق سماءنا ... وتموج فيها العزة القعساء

ويلعلع المذياع .. فالدنيا لنا ... وعلى خطانا تركع العلياء

ذكرى تُثار وتنطوي فكأنها ... عبء ، كذلك تسقط الأعباء

وضريبة الوطن الشهيد تحية ... صخبت ، ولافتة علت ، ونداء !!

* *

أهم المصـــادر والمراجع

أ) كتب ودراسات

١ – ابراهيم عبد الستار : شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية ـ نشر نادي الإخاء العربي ، حيفا .

٢ – ابراهيم العريض : الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث ـ بيروت ١٩٥٥

٣ – أسماء النقيب : قضية فلسطين من خلال الشعر العربي (باستثناء شعر أبنائها) ـ رسالة جامعية ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ (على الآلة الكاتبة)

٤ – أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ـ القاهرة ١٩٥٦

٥ – أنيس المقدسي : العوامل الفعالة في الأدب الحديث ـ بيروت

٦ – بديع حقي : التراب الحزين ـ بيروت ١٩٦٠

٧ – جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ـ مصر ١٩٥٦

٨ – جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية ـ بيروت ١٩٥٧

٩ – زكي المحاسني : ابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب ـ القاهرة ١٩٥٥

١٠ – سعدي بسيسو : اسرائيل خيانة وجناية ـ حلب ١٩٥٦

١١ - شفيق جبري : أنا والشعر ـ مصر ١٩٥٩
١٢ ـ عارف العارف : النكبة : نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود صيدا ـ بيروت ١٩٥٦ ج ١
١٣ ـ عبد الله التل : مذكرات التل ـ مصر ١٩٤٩
١٤ ـ عبد الله عبد الدايم : القومية والإنسانية ـ بيروت ١٩٥٧
١٥ ـ عمر فروخ : شاعران معاصران : طوقان والشابي ـ بيروت ١٩٥٤
١٦ ـ قسطنطين زريق : معنى النكبة ـ بيروت ١٩٤٨
١٧ ـ محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي (ترجمة بروتوكولات حكماء صهيون) القاهرة ١٩٥١
١٨ ـ محمد مندور : قضايا جديدة في أدبنا الحديث ـ بيروت ١٩٥٨
١٩ ـ محمد نمر الخطيب : من أثر النكبة ـ دمشق ١٩٥١
٢٠ ـ منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة ـ القاهرة ١٩٥٣
٢١ ـ موسى العلمي : عبرة فلسطين ـ بيروت ١٩٤٩
٢٢ ـ نجيب صدقة : قضية فلسطين ـ ١٩٤٦
٢٣ ـ وليد قمحاوي : النكبة والبناء ـ بيروت ١٩٥٦
٢٤ ـ يسار العسكري : قضية فلسطين من خلال شعر أبنائها ـ رسالة جامعية : ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ (على الآلة الكاتبة)
٢٥ ـ يوسف هيكل : القضية الفلسطينية ـ يافا ١٩٣٧

ب) دواوين ومجموعات شعرية

٢٦ ـ ابراهيم طوقان : ديوان ابراهيم ـ بيروت ١٩٥٥
٢٧ ـ أحمد زكي أبو شادي : من السماء ـ نيويورك ١٩٤٩

٢٨ - أحمد فهمي : أحلام العودة - دمشق ١٩٥٧
٢٩ - الياس فرحات : الخريف (الجزء الثالث من ديوانه) - سان باولو ١٩٥٤
٣٠ - أمين شنّار : المشعل الخالد - البيره الأردن ١٩٥٧
٣١ - ايليا أبو ماضي : الخمائل - بيروت مكتبة صادر (بدون تاريخ)
٣٢ - بشارة الخوري : الهوى والشباب - دار المعارف بمصر ١٩٥٣
٣٣ - جورج صيدح : نبضات - باريس ١٩٥٣
٣٤ - « « : النوافل - بونس أيرس (الأرجنتين) ١٩٤٧
٣٥ - خليل زقطان : صوت الجياع - القدس ١٩٥٣
٣٦ - خليل مردم بك : ديوان خليل مردم بك - دمشق ١٩٦٠
٣٧ - رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) : الأعاصير - صيدا ١٩٤٩
٣٨ - سلمى الخضراء الجيوسي : العودة من النبع الحالم - بيروت ١٩٦٠
٣٩ - سليمان العيسى : رسائل مؤرقة - بيروت ١٩٦٠
٤٠ - سمير صنبر : غداً نعود - بدون مكان ولا تاريخ
٤١ - شعراء جمعية الرابطة العلمية الأدبية في النجف الأشرف : الفلسطينيات - النجف ١٩٣٩
٤٢ - صلاح الدين عبدالصبور : الناس في بلادي - بيروت ١٩٥٧
٤٣ - عبد الرحيم محمود : ديوان عبد الرحيم محمود - طبع عام ١٩٥٨
٤٤ - عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) : أغنيات بلادي - دمشق ١٩٥٩
٤٥ - « « « : المشرّد - دمشق ١٩٥٣
٤٦ - عبد الوهاب البياتي : أباريق مهشمة - بيروت ١٩٥٥
٤٧ - علي هاشم رشيد : أغاني العودة - مصر ١٩٦٠
٤٨ - عمر أبو ريشة : ديوان شعر - حلب ١٩٣٧
٤٩ - « « : مختارات - بيروت (بدون تاريخ)

٥٠ ـ عيسى الناعوري : أناشيدي ـ حماه (بدون تاريخ)
٥١ ـ فدوى طوقان : وجدتها ـ بيروت ١٩٥٧
٥٢ ـ « « : وحدي مع الأيام ـ مصر ١٩٥٢
٥٣ ـ كمال ناصر : جراح تغني ـ بيروت ١٩٦٠
٥٤ ـ محمد العدناني : اللهيب ـ صيدا بيروت ١٩٥٤
٥٥ ـ محمد علي الحوماني : النخيل ـ (بدون مكان ولا تاريخ)
٥٦ ـ محمود حسن اسماعيل : نار وأصفاد ـ مصر ١٩٥٩
٥٧ ـ محمود الحوت : المهزلة العربية ـ بغداد ١٩٥١
٥٨ ـ نزار قباني : قصائد من نزار قباني ـ بيروت ١٩٥٦
٥٩ ـ نسيب عريضة : الأرواح الحائرة ـ نيويورك ١٩٤٦
٦٠ ـ هارون هاشم رشيد : أرض الثورات ـ بيروت ١٩٥٩
٦١ ـ « « « : عودة الغرباء ـ بيروت ١٩٥٦
٦٢ ـ « « « : غزة في خط النار ـ بيروت ١٩٥٧
٦٣ ـ « « « : مع الغرباء ـ القاهرة ١٩٥٤
٦٤ ـ يوسف الخطيب : العيون الظماء للنور ـ دمشق ١٩٥٥
٦٥ ـ « « : عائدون ـ بيروت ١٩٥٩

ج) مخطوطات شعرية

٦٦ ـ أنور العطار
٦٧ ـ حسن البحيري
٦٨ ـ عبد الرحمن الكيالي
٦٩ ـ عمر بهاء الأميري
٧٠ ـ محيي الدين الحاج عيسى

د) المجـلات

٧١ – الآداب – تصدر في بيروت

٧٢ – الأديب – » » »

٧٣ – الثقافة – » » دمشق

٧٤ – الرائد العربي – تصدر في حماه

٧٥ – الرسالة – كانت تصدر في القاهرة

٧٦ – العربي – تصدر في الكويت

٧٧ – المسلمون – » » دمشق

★ ★

فهرس الموضـــوعات

★ ★

المؤلف

يشكر مدير مطبعة جامعة دمشق وموظفيها
على ما بذلوه من جهد وعناية
في طبع هذا الكتاب

تم طبع الكتاب في
١٩٦٠/١١/٢٧

للمؤلف

- **اندلسيات شوقي**

« بحث تطبيقي في أدب شوقي في المنفى وأثر الأندلس في شخصيته وفنه »

(مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩)

- **أخبار البحتري**

لأبي بكر الصولي

« تحقيق الكتاب ونشره لأول مرة »

(مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٨)

- **إسلاميات**

« أحاديث ومقالات »

(معد للطبع)

- **إعتاب الكتّاب**

لأبي عبد الله بن الأبّار

« تحقيق الكتاب ونشره لأول مرة »

(معد للطبع بتكليف من المجمع العلمي بدمشق)